للناشئين والشباب

3

روائع الأدب العالمي

في كبسولة

عرض وتبسيط : مختار السويفي

* جزيرة الكنز
* الكونت دي مونت كريستو
* الملاح وجزيرة العجائب
* روبنسون كروزو
* رجال عظام ونساء عظيمات
* الفضيلة أو - بويل وفرجيني
* ضجيج بلا مبرر
* هاملت : أمير الدنمارك

الناشر

مكتبة الدار العربية للكتاب

روائع الأدب العالمي 3

في كبسولة

مكتبة الدار العربية للكتاب
16 عبد الخالق ثروت القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

رقم الإيداع : 10090 / 1994
الترقيم الدولي : 5 - 27 - 5366 - 977

الطبعة الثالثة : صفر 1425 هـ - إبريل 2004م
الطبعة الرابعة : ذو الحجة 1427هـ - يناير 2007م
الطبعة الخامسة : جمادى الآخر 1431هـ - يونيو 2010م
تصميم الغلاف والرسوم الداخلية : محمد قطب

الفهـــرس

الموضـــــــوع	الصفحة
إهــداء	7
مقــدمة	9
1 - جزيرة الكنز	11
2 - الكونت دي مونت كريستو	57
3 - الملّاح وجزيرة العجائب	79
4 - روبنسون كروزو	93
5 - رجال عظام ونساء عظيمات	119
- غاندي	121
- فلورنس نايتنجيل	131
- مدام كوري	141
- إبراهام لينكولن	151
- ألبرت شفايتزر	158
6 - الفضيلة - أو - بول وفرجيني	165
7 - ضجيج بلا مبرر	185

8 – هاملت : أمير الدنمارك 203

• المؤلفون الذين ورد ذكرهم في هذا الكتاب 217

1 – روبرت لويس ستيفنسون 219

2 – ألكسندر دوماس 221

3 – نبذة عن الأدب المصري القديم 223

4 – دانييل ديفو 225

5 – برناردين دي سان بيير 227

6 – وليم شكسبير 229

* * *

إهـــداء ...

إلى حبيبة الروح ..

زهرة الشباب النقية الطاهرة ..

صاحبة البسمة الوضيئة ..

والطباع النبيلة الطيبة ..

ابنتي هالة ..

رحمها الله وأكرم مثواها ..

مقــدمة

تهدف هذه السلسلة من « روائع الأدب العالمي في كبسولة » إلى تعريف الناشئين والشباب بأشهر الأعمال الأدبية الذائعة الصيت في أرجاء العالم أجمع، والتي أبدعها كبار الكتاب والأدباء ذوو الشهرة العريضة في تاريخ الأدب .

وفي الجزءين الأول والثاني من هذه السلسلة قدمت لكم أعمالًا أدبية لفطاحل الأدباء والمؤلفين مثل : جول فيرن .. وروبرت لويس ستيفنسون .. وجون شتاينبك .. وتشارلز ديكنز .. ووليم بلاي .. وهـ. ج. ويلز .. ومارك توين .. وجين أوستن .. ووليم شكسبير .

وفي هذا الجزء الثالث أعرض لكم أعمالًا أدبية شهيرة لبعض الأدباء سالفي الذكر ، بالإضافة إلى أدبـاء عالميين جدد مثل : ألكسندر دوماس .. وليزلي ليفيت .. وبرناردين دي سان بيير .

وقد رأيت أن أعرض لكم قصة رائعة من قصص المغامرات المثيرة ، كتبها مؤلفها المجهول منذ نحو أربعة آلاف سنة ! .. ومعنى ذلك أنها من الأدب المصري القديم الذي يعتبره المؤرخون وعلماء الأدب المقارن أقدم أدب ظهر في تاريخ حضارات الإنسان .

وتدور القصة حول ملّاح مصري قديم غرقت سفينته ، ونجا وحده ، وعاش في جزيرة منعزلة ، وحصل على كنز ثمين .. ثم عاد إلى وطنه .

وهذا المحور الذي تدور حوله قصة هذا الملاح المصري القديم ، ثم أنتقل فيما بعد إلى عديد من الأعمال الأدبية العالمية التي أبدعها أدباء من جنسيات مختلفة .. وهي أعمال تدور حول مغامرات العثور على كنوز ثمينة ، وحول أبطال هذه الأعمال الذين عاشوا في جزيرة منعزلة .. وذلك مثل قصة «جزيرة الكنز» من تأليف الأديب الإنجليزي «روبرت لويس ستيفنسون» وقصة «الكونت دي مونت كريستو» من تأليف الأديب الفرنسي «ألكسندر دوماس» وقصة «روبنسون كروزو» من تأليف الأديب الإنجليزي «دانييل ديفو» وقصة «الفضيلة أو - بول وفرجيني» من تأليف الأديب الفرنسي «برناردين دي سان بيير» .

وبطبيعة الحال هناك اختلافات عديدة في كيفية تناول الموضوع في كل عمل من هذه الأعمال الأدبية ، ولكن المحور الرئيسي لكل هذه القصص يدور إما حول العثور على كنز أو الحياة في جزيرة منعزلة ، وهو نفس المحور الذي أبدعه المؤلف المصري القديم في قصة «الملّاح وجزيرة العجائب» .

ولذلك فقد حرصت على تقديم هذه الأعمال الأدبية ضمن هذا الجزء الثالث من « روائع الأدب العالمي في كبسولة » ليرى القارئ الكريم بنفسه كيف تأثرت هذه الأعمال الأدبية العالمية بقصة مصرية قديمة يرجع تاريخها إلى عصور الفراعنة .

مختار السويفي

كورنيش النيل - القاهرة

أول أكتوبر 1994

جزيرة الكنز

TREASURE ISLAND
ROBERT LOUIS STEVENSON

البحار العجوز الشرس

اسمي « جيم هوكينز » .. وأنا أعمل بمساعدة أمي في الحانة التي يمتلكها أبي .. وهذه الحانة عبارة عن فندق صغير يأوي إليه بعض العابرين الذين يريدون الإقامة لليلة واحدة أو ليالٍ عدة ، وبعض الراغبين في تناول الطعام أو الشراب .

ومازلت أذكر ذلك البحار العجوز الأسمر الذي وصل إلى الحانة ذات يوم .. كان طويل القامة ثقيل الجسم ، يرتدي معطفًا قذرًا أزرق اللون، وتبدو على خده علامة بيضاء تميل إلى الزرقة ، من أثر جرح قديم من ضربة سيف .

دخل هذا البحار ومعه صندوقه البحري ، وهو صندوق مماثل للصناديق التي يستعملها البحارة لحفظ حاجياتهم .. وما إنْ جلس إلى إحدى الموائد حتى طلب من والدي زجاجة « روم » وهو شراب مسكر قوي ، وأخذ يعب منها عبًّا وبشراهة لافتة للنظر .

كانت تصرفاته فظة خالية من الذوق والأدب .. فقد ألقى بأربع قطع ذهبية وقال لوالدي : تستطيع أن تدعوني بـ « الكابتن » .. وسوف أقيم هنا مقابل هذه النقود .. وأخبرني عندما تريد المزيد .

وفي معظم الأحيان كان هذا البحار الشرس يغادر حجرته ، ويتجول على شاطئ البحر ، وهو يحمل منظاره المقرب المصنوع من النحاس .. ثم يعود إلى

الحانة ليجلس في الصالة ويحتسي شراب « الروم » .. ثم يبدأ في الغناء بصوت قبيح ، وينشد كلمات أغنية تبدو من أغاني القراصنة .

وفي إحدى المرات استدعاني ، ووعدني بأن يعطيني أربعة بنسات فضية في أول كل شهر ، إذا راقبت جيدًا ظهور بحار معين له ساق واحدة، على أن أخبره فورًا عند ظهور هذا البحار .

وطالت إقامة هذا « الكابتن » لدينا أسبوعًا وراء أسبوع ، ثم شهرًا بعد شهر ، دون أن نجسر على مطالبته بالمزيد من النقود بعد أن انتهى حقه في الإقامة مقابل النقود التي دفعها في أول مرة .

وبعد ظهر أحد الأيام جاء الدكتور « لايفسي » ليعاود الكشف على والدي بعد أن اشتد عليه المرض ، وبعد أن انتهى الدكتور من مهمته ، جلس في الصالة ليتناول بعض الطعام الذي أعدته له والدتي ، وكان «الكابتن» جالسًا وهو يحتسي « الروم » ويغني أغنيته الفظة ، ويبدو أن الدكتور «لايفسي» قد اشمأز من كلمات ونغمات تلك الأغنية ، فقد انصرف عن سماعها وأخذ يتحدث مع الجنايني العجوز الذي كان يجلس بجانبه . وهنا اشتد غضب « الكابتن » وطلب من الدكتور أن يسكت . ولم يهتم الدكتور بما قاله « الكابتن » وقال بفتور : إذا واصلت شرب « الروم » بهذا الشكل ، فسوف يتخلص العالم من شخص قذر جدًا وكريه !

وهنا انتفض « الكابتن » وهبَّ واقفًا بعد أن سحب سكينًا ذات نصل حاد وهدد الدكتور بالقتل .. ولكن الدكتور قال له بشجاعة : اترك هذه السكين فورًا وإلا فسوف أطالب بشنقك !

وعندئذ جلس « الكابتن » وأخذ يهمهم بكلمات وأصوات محبوسة في حلقه مثل الكلب المهزوم .

الكلب الأسود .. يظهر ويختفي !

وفي أحد أيام شهر يناير الباردة ، وصل إلى الحانة رجل غريب يحمل سيفًا معلقًا على جـانبه بالرغم من أن منظره العام لا يوحي بأنه محارب ، وفاجأ «الكابتن» أثناء جلوسه في الصالة وانتفض « الكابتن » واقفًا وقال: مَنْ ؟! .. الكلب الأسود ؟! .. ماذا تريد ؟!

فقال الرجل الغريب : نعم .. الكلب الأسود .. جاء ليتحدث مع صديقه « بيل » !

وبدأ حديث كان هامسًا في البداية ، ولكنه سرعان ما تحول إلى شجار تبادل فيه الرجلان سيلاً من الشتائم واللعنات ، ثم بدأ عراك استخدما فيه المقعد والمائدة ، ثم سمعت صرخة ألم ، ورأيت الكلب الأسود يجري هاربًا والدماء تسيل بغزارة من كتفه الأيسر .. وسقط « الكابتن » على الأرض لاهث الأنفاس وشاحب الوجه .

ولحسن الحظ وصل الدكتور « لايفسي » إلى الحانة في تلك اللحظة لزيارة أبي المريض ، فطلبنا منه أن يعالج « الكابتن » من جروحه .. وقمت أنا وأمي بمساعدة الدكتور في مهمته .. وعندما خلعنا المعطف عن جسم «الكابتن» الراقد بلا حراك ، رأينا صورًا غريبة وكلمات أكثر غرابة مرسومة ومكتوبة بالوشم على مختلف أجزاء جسمه .. وقرأنا اسم « بيلي بونز » مكتوبًا على ذراعه .

وقال الدكتور « لايفسي » بعد أن فحص المريض : إن هذا البحار اللعين ليس جريحًا ، ولكنه سقط لشدة ما يعانيه من مرض بسبب كثرة ما عاقره من شراب « الروم » ، ومن المؤكد أن هذا الشراب سيقضي على حياته لو واصل

شربه بهذه الكثرة .. لقد نجا هذه المرة ، ولكنه سيظل راقدًا نحو أسبوع .. وإذا عاودته مثل هذه الأزمة مرة ثانية ، سيكون فيها القضاء على حياته .

وتعاونت مع أمي والدكتور «لايفسي» في حمل «الكابتن» إلى حجرته بالدور العلوي وأرقدناه على سريره .

الوصمة السوداء

مات أبي في أمسية ذلك اليوم ، وبالرغم من صغر سني فقد أصبحت مسئولاً عن استقبال الجيران الذين جاءوا للتعزية والقيام بكل إجراءات الجنازة ، والقيام بجميع أعمال الحانة .

وفي صباح اليوم التالي ، تحامل « الكابتن » على نفسه وهبط من حجرته، وتوجه فورًا إلى حيث يوجد برميل « الروم » ، وأخذ يعب منه عبًا .. حاولت أن أمنعه وأذكِّره بما قاله الدكتور « لايفسي » من أن استمراره في شرب الروم سيؤدي إلى موته ، ولكنه لم يتوقف عن الشراب إلا عندما أصبح لا يستطيع مواصلة الشرب مرة أخرى . وعندئذ ارتمى على مقعد وسحبني من يدي وأخذ يبوح لي بكل أسراره .

قال لي إن هؤلاء البحارة الأشرار الذين كانوا يعملون مع القرصان «فلينت» هم الذين أرسلوا إليه الكلب الأسود مندوبًا عنهم ليعرفوا مكانه لكي يسلموا إليه « الوصمة السوداء » .. وإنهم يريدون الاستيلاء على أمواله وأسراره المحفوظة في صندوقه البحري .. وإنه الوحيد الذي يعرف سر المكان الذي خبأ فيه القرصان « فلينت » كنزه .. لأنه كان يعمل في سفينة القرصان كضابط أول ، وكان « فلينت » يثق فيه ويأتمنه دون الرجال الآخرين الذين كانوا يعملون معه في السفينة نفسها.

وقال لي الكابتن أيضًا إنه يثق بي وسوف يقتسم معي كل شيء بشرط أن أسمح له بشرب الروم كلما أراد، وبشرط آخر أن أحميه من هؤلاء القراصنة الأشرار حين يحضر أحدهم ليسلمه « الوصمة السوداء » .. وحاولت أن أعرف من « الكابتن » ما هي « الوصمة السوداء » التي يتحدث عنها ، ولكنه قال إنه سيخبرني بهذا السر فيما بعد .. وطلب مني أن أستمر في مراقبة أي بحار يحضر إلى الحانة ، خصوصًا الكلب الأسود وكذا البحار صاحب الساق الواحدة المتوقع حضوره بين حين وآخر .

وفي فترة بعد الظهر من ذلك اليوم ، كنت واقفًا أمام باب الحانة ، ومستغرقًا في أحزاني على موت والدي ، وفي التفكير في تلك الكلمات والأسرار الغريبة التي باح بها « الكابتن » .. ورأيت رجلًا أعمى قوي الجسم يسير ببطء شديد وهو يتحسس طريقه بعصا يمسكها في يده .

توقف الأعمى قليلاً أمام باب الحانة وصاح قائلاً : هل يستطيع أي صديق طيب أن يساعد رجلًا أعمى فقد نور عينيه في سبيل الدفاع عن إنجلترا ، ويخبرني أين تقع الحانة .

وعلى الفور مددت إليه يدي لأخبره بأنه أمام باب الحانة تمامًا .. وفوجئت بالرجل الأعمى وقد أطبق على كتفي بيد من حديد ، وطلب مني أن أدله على مكان « الكابتن » فسحبته إلى الصالة حيث كان الكابتن جالسًا يواصل شرب الروم .. وما إنْ رأى الكابتن هذا الرجل الأعمى حتى أصيب بالهلع . وتقدم منه الرجل الأعمى وأعطاه في يده اليمنى شيئًا لم أتبينه ، ثم انصرف على الفور وهو يتحسس طريقه بالعصا التي كان يحملها.

وفتح الكابتن يده وقرأ شيئًا .. ثم التفت إليَّ وقال : في الساعة العاشرة! .. لقد انتهى الأمر !! ..

وخرَّ الكابتن على الأرض .. فأسرعت إليه محاولاً إنقاذه .. وناديت على أمي لتساعدني ، ولكن لا فائدة .. فقد مات الكابتن !

- **الصندوق البحري**

أخبرت أمي بكل ما عرفته من أسرار الكابتن ، فقررت أن نقوم بفتح الصندوق البحري الذي كان الكابتن يحتفظ به في حجرته ، لكي نحصل على حقنا في النقود التي ندين بها الكابتن كأجر لإقامته وكثمن لما كان يتناوله من طعام وشراب . وعثرنا على مفتاح الصندوق الذي كان مربوطًا بقطعة من الدوبارة كان يعلقها الكابتن حول رقبته .

وعندما فتحنا الصندوق وجدنا مجموعة من أشياء متنوعة مصنوعة من الذهب والفضة .. وزوجًا من المسدسات الثمينة .. وساعة قديمة .. وبعض قطع المجوهرات والنقود الذهبية من جنسيات مختلفة .. كما وجدنا مجموعة من الأوراق القديمة ملفوفة جيدًا بقطعة من القماش . ولم تأخذ أمي أي شيء من كل هذه المحتويات سوى بعض قطع النقود التي قدرتها كأجر لإقامة الكابتن بالحانة .

وفجأة سمعت وقع دقات العصا التي كان يتحسس بها الرجل الأعمى طريقه ، بل وسمعت محاولاته في فتح باب الحانة الذي كنا قد أغلقناه من الداخل .. وانصرف الأعمى بعد فشله في تلك المحاولة . وعندئذ طلبت من أمي أن نفر فورًا من الحانة لإحساسي بأن الخطر قد أصبح يحيط بنا من كل جانب ، وأن الأعمى قد ذهب لإحضار بقية البحارة القراصنة الأشرار الذين أخبرني عنهم الكابتن قبل موته ..

وقبل أن نشرع في الفرار ، مددت يدي إلى داخل الصندوق البحري وأخذت مجموعة الأوراق الملفوفة بالقماش .. وانطلقنا نجري بأقصى ما نستطيع من سرعة تجاه القرية . ولكن في منتصف الطريق سمعنا وقع أقدام كثيرة تجري خلفنا ، ورأينا مجموعة من الرجال يتعقبوننا ويحمل أحدهم مصباحًا في يده .. وأوشكت أمي على الإغماء من شدة الخوف .. ولا أدري من أين جاءتني القوة ، ولكني استطعت في النهاية أن أسحب أمي وأختفي معها تحت الكوبري الذي يقع على مشارف القرية .

- **نهاية الرجل الأعمى**

توقف الرجال عن مطاردتنا ، وتجمعوا بالقرب من المكان الذي كنا نختبئ فيه أنا وأمي التي غابت تمامًا عن الوعي بسبب ما كانت تعانيه من رعب وهلع .. وسمعت الرجل الأعمى وهو يتحدث مع بقية هؤلاء الرجال الذين قالوا له إنهم حطموا باب الحانة وفتشوا غرفة الكابتن ، ولكنهم وجدوا الصندوق البحري مفتوحًا ولكن النقود كانت موجودة فأخذوها معهم .. وقال الرجل الأعمى : لعنة الله على النقود .. هل عثرتم على أوراق رئيسنا الكابتن « فلينت » ؟ .. فقال الرجال : لم تكن هناك أية أوراق في الصندوق .. وهنا قال الأعمى : لقد سبقنا هذا الغلام الصغير في الحصول على تلك الأوراق المهمة ، ولابد أنه مختبئ الآن هو وأمه بالقرب من هذا المكان ، ولابد من العثور عليهما حتى نحصل على الأوراق .. هيا ابحثوا عنهما جيدًا في كل مكان !

وفي تلك اللحظة سمعنا وقع أقدام خيول كثيرة قادمة من أعلى التل .. ورأيت مجموعة من الجنود وعلى رأسهم المأمور « دانس » وهم ينطلقون

بأقصى سرعة لمطاردة هؤلاء القراصنة اللصوص ، الذين فروا جميعًا في كل اتجاه وتركوا الرجل الأعمى وهو يتخبط في الطريق ولا يعرف أين يسير.

ولأن الخيول كانت مندفعة بأقصى سرعة ، فقد اصطدم الرجل الأعمى بأحد هذه الخيول صدمة قوية ألقته على الأرض ومر الحصان فوق جسده فمات على الفور .

وساعدني الجنود في نقل أمي إلى الحانة بعد أن تخلصنا من هؤلاء المهاجمين . وأخبرت المأمور بأن هؤلاء اللصوص لم يسرقوا شيئًا من الصندوق سوى ما كان فيه من نقود .. أما الأوراق التي كانوا يبحثون عنها فهي معي وأريد أن أعرضها على الدكتور « لايفسي » .. فوافق المأمور على ذلك ، وأركبني على الحصان خلفه .. وذهبنا لمقابلة الدكتور «لايفسي».

- **خريطة جزيرة الكنز**

وصلنا إلى قاعة المجلس المحلي ، وكانت هذه هي أول مرة أدخل فيها إلى تلك القاعة ، وهناك تركني المأمور لكي أقابل الدكتور «لايفسي» وحدي.. ولكني وجدت الدكتور جالسًا مع صديقه «المستر تريلاوني».. وهو رجل من علية القوم في منطقتنا ؛ طويل القامة وعريض المنكبين ، وله وجه قوي الملامح تبدو عِليه آثار أسفاره الطويلة العديدة .

في البداية امتنعت عن الكلام بعد أن لاحظ الدكتور «لايفسي» أني أحمل سرًا أريد أن أبوح به .. ولكن الدكتور طمأنني وأفهمني أن مستر «تريلاوني» يعتبر من أعز أصدقائه .. وبدأت أحكي للرجلين القصة من أولها إلى آخرها، وكيف حصلت على تلك الأوراق المهمة التي كان الرجل الأعمى وعصابته

من القراصنة يريدون الحصول عليها . وأخرجت لفافة القماش التي تحتوي على تلك الأوراق وقدمتها إلى الدكتور ، وقلت للرجلين إني سمعت القراصنة وهم يقولون إن هذه الأوراق خاصة برئيسهم «الكابتن فلينت» .

وما إنْ سمع مستر « تريلاوني » هذا الاسم حتى قال إن «الكابتن فلينت» هذا كان أخطر القراصنة في هذا العصر ، وأنه سطا على عشرات من السفن المبحرة ، واستولى هو وعصابته على أشياء ثمينة لا أول لها ولا آخر .

وعندما فتحنا اللفافة بكل عناية ، وجدنا داخلها خريطة لإحدى الجزر وعليها خطوط تبين موقعها بالنسبة لخريطة العالم ، ومجموعة من الأرقام تبين أعماق ماء البحر عند سواحلها ، وأسماء التلال والخلجان الموجودة فيها وكل المعلومات اللازمة لرسو السفينة بأمان عند شاطئها.

ويبلغ طول تلك الجزيرة - حسب الخريطة - نحو سبعة كيلومترات ، ويبلغ عرضها نحو أربعة كيلومترات وكان للجزيرة مرفآن ، وفي وسطها تل وضعت عليه كلمة « المنظار المقرب » .. ولاحظنا وجود كلمات دوّنت فيما بعد بالحبر الأحمر ، وكانت هذه الكلمات تقول : « الجزء الأكبر من الكنز يوجد هنا » ! .. كما لاحظنا وجود كلمات غامضة أخرى مثل : شجرة طويلة .. كتف المنظار المقرب .. خط إلى الشمال الشرقي .. عشرة أقدام .. وكانت هذه الكلمات بتوقيع « ج . ف » وهما الحرفان الأولان من اسم القرصان «فلينت» .

وهنا قال مستر « تريلاوني » مخاطبًا صديقه الدكتور «لايفسي» : إن كل شيء واضح .. وعليك يا دكتور أن تتخلص من جميع أعمالك هنا .. وغدًا سوف أذهب إلى ميناء « بريستول » لكي أحصل على أحسن سفينة هناك ،

وعلى أحسن البحارة في إنجلترا كلها .. وسيكون « جيم هوكينز » هو فتى السفينة ، وستكون أنت طبيب السفينة ، أما أنا فسوف أكون مالك السفينة وسنصحب معنا ثلاثة من رجالي أثق فيهم كل الثقة .. وسنقوم برحلتنا إلى جزيرة الكنز .. وسوف نلعب بعد ذلك بالنقود لعبًا .

وقال الدكتور « لايفسي » : إني أوافق على كل ذلك .. وأعتقد بأن صديقنا « جيم هوكينز » موافق أيضًا على الاشتراك في تلك المغامرة .. ولكني أخاف من شخص واحد .

تساءل مستر « تريلاوني » : مَنْ هو ؟ ..

فأجاب الدكتور «لايفسي»: إنه أنت يا مستر «تريلاوني».. فأنت لا تستطيع أن تلوذ بالصمت .. وأرجو أن تعرف أننا لسنا وحدنا الذين يعلمون بأمر تلك الخريطة ، فهؤلاء القراصنة الذين هاجموا الحانة يعرفون الأمر ، ويريدون الحصول على الكنز الذي خبأه القرصان « فلينت » في تلك الجزيرة.

وهنا وعد مستر « تريلاوني » بأنه سيلزم الصمت ، ولن يبوح لأحد بسر هذه المهمة .

- **في ميناء بريستول**

ذهب مستر « تريلاوني » إلى ميناء « بريستول » لتجهيز وإعداد السفينة التي سنرحل بها إلى جزيرة الكنز .. وذهب الدكتور « لايفسي » إلى لندن ليختار طبيبًا يقوم بإدارة العيادة أثناء فترة غيابه .. وبقيت أنا في دار المجلس المحلي تحت رعاية الجنايني العجوز « توم ردروث » وهو أحد الرجال المخلصين لمستر « تريلاوني » ..

كنت كالسجين داخل تلك الدار ، ولكني كنت أقضي وقتي كله مستغرقًا في الأحلام عن تلك الجزر الغريبة ، وعن المغامرات المثيرة التي سمعت عنها .. وكنت أقضي الساعات تلو الساعات في دراسة الخريطة وكل خط فيها حتى حفظتها عن ظهر قلب .

ومضى وقت طويل إلى أن وصلت رسالة معنونة باسم الدكتور «لايفسي» ، وأضيفت إلى هذا العنوان ملحوظة تقول : « في حالة غياب الدكتور تفتح هذه الرسالة بمعرفة توم ردروث أو بمعرفة جيم هوكينز الصغير » .

وفتحنا تلك الرسالة المرسلة من مستر « تريلاوني » والمؤرخة في أول مارس سنة 1759 . وكان مضمونها أن مستر « تريلاوني » قد اشترى سفينة جميلة اسمها « هيسبانيولا » .. وأنه وجد صعوبة شديدة في العثور على البحارة اللازمين للقيام برحلة السفينة إلى الجزيرة التي يوجد بها الكنز .. إلى أن عثر أخيرًا على رجل يمتلك حانة صغيرة بميناء بريستول ، ولكنه كان يعمل بحارًا من قبل ولديه خبرة عظيمة في أعمال السفن أثناء رحلاتها البحرية ، ووصف لنا مستر « تريلاوني » هذا البحار القدير بأن له ساقًا واحدة ، أما ساقه الأخرى فقد فقدها في خدمة الدولة ، كما ذكر لنا اسم هذا البحار وهو « جون سيلفر الطويل » . ويقول مستر « تريلاوني » أيضًا إن «جون سيلفر» هذا يجيد طهو الطعام والإشراف على تموين السفن ، ولذلك فقد عينه طباخًا للسفينة . كما أن « جون سيلفر » قد ساعده أيضًا في اختيار مجموعة من أحسن البحارة الذين يتمتعون بروح عالية رائعة .

وفي ختام الرسالة أبلغنا مستر « تريلاوني » بأنه اتفق مع أحد أصدقائه على إرسال سفينة للبحث عنا ؛ إذا لم نعد من رحلتنا في نهاية شهر أغسطس،

كما أن صديقه هذا ساعده في اختيار قبطان ممتاز لقيادة السفينة اسمه «الكابتن سموليت» .. كذلك فقد عثر « جون سيلفر » على رجل مفيد ليصبح ضابط أول السفينة واسمه « أرو » . وفي النهاية طلب منا مستر «تريلاوني» أن نحضر إلى ميناء بريستول فورًا لنبدأ رحلتنا إلى جزيرة الكنز.

وعندما وصلنا إلى بريستول وجدنا الدكتور «لايفسي» قد سبقنا في الحضور .. وهكذا اجتمع شملنا ، وأصبحت السفينة مستعدة للإبحار في اليوم التالي .

- **جون سيلفر ذو الساق الواحدة**

بعد أن انتهيت من تناول إفطاري في صباح اليوم التالي ، أعطاني مستر «تريلاوني» رسالة لأسلمها إلى «جون سيلفر» في الحانة التي يديرها ، وكانت هذه الرسالة تتضمن التعليمات الأخيرة لإبحار السفينة . وعندما وصلت إلى تلك الحانة ، شاهدت « جون سيلفر الطويل » للمرة الأولى .. كانت ساقه اليسرى مقطوعة من أعلى الركبة ، وكان طويل القامة قوي الجسم وتبدو عليه ملامح الذكاء وسرعة الفهم .

والحقيقة أني كنت أخشى أن يكون « جون سيلفر » هذا هو نفسه ذلك الرجل ذا الساق الواحدة الذي طلب مني « الكابتن بيل بونز » العجوز أن أراقب ظهوره عندما كان يُقيم في حانتنا .. ودارت في رأسي صور هؤلاء القراصنة الأشرار : الكابتن بيل بونز .. والكلب الأسود .. والرجل الأعمى وعصابته .. ولكني تراجعت عن هذا التفكير ؛ لأن « جون سيلفر » كان من طراز مختلف تمامًا .. فقد كان نظيفًا ودائم الابتسام وله طباع هادئة تبعث على السرور .

وبينما كنت أتبادل معه أطراف الحديث ، لاحظت أن رجلاً كان جالسًا بجوار باب الحانة قد هبَّ واقفًا ولاذ بالفرار فور أن رآني ، وقد عرفت هذا الرجل فورًا .. إنه الكلب الأسود أحد القراصنة الأشرار .. لذلك فقد صحت بأعلى صوتي : أمسكوه .. إنه الكلب الأسود .. إنه أحد القراصنة .. وهنا علت الدهشة وجه « جون سيلفر » وقال بحدة : قرصان ؟ .. قرصان هنا في حانتي ؟ .. هذا أمر فظيع !

وأرسل « جون سيلفر » رجلين ليقبضا على القرصان الهارب .. ولكن الرجلين عادا وهما يقولان إنه هرب منهما وسط الزحام .. وسألني « جون سيلفر » كيف عرفت هذا الكلب الأسود .. فأخبرته بمن أعرفهم من القراصنة الآخرين .. والحقيقة أن جميع مخاوفي وشكوكي قد استيقظت في نفسي منذ أن رأيت الكلب الأسود في الحانة التي يديرها « جون سيلفر » .. ولكنه كان ذكيًا جدًا ولا يدع أي مجال للشك فيه من بعيد أو قريب .

وعندما عدنا إلى مستر «تريلاوني» والدكتور « لايفسي » حكى لهما «جون سيلفر» حكاية القرصان الكلب الأسود ، الذي تعرفت عليه عندما كان جالسًا في الحانة ، وأثنى على ذكائي وما أتمتع به من قوة الملاحظة .

- **الأسلحة والبارود**

وعندما صعدنا إلى ظهر السفينة « هيسبانيولا » استقبلنا الضابط الأول مستر « أرو » وهو بحار عجوز داكن البشرة يعلق حلقًا في كلتا أذنيه .. ولاحظت على الفور أن هناك ودًا وصداقة تربط بين مستر «تريلاوني» ومستر «أرو» .. ولاحظت في الوقت نفسه أن الود مفقود تمامًا بين مستر «تريلاوني» وقبطان السفينة «الكابتن سموليت» ، الذي كان يبدو غاضبًا من كل شيء على ظهر السفينة .

ودار حديث اشترك فيه كل من مستر «تريلاوني» والدكتور «لايفسي» والقبطان « سموليت » . وفهمت من هذا الحديث أن القبطان له عدة ملاحظات هي :

- أنه اكتشف أن كل رجل على ظهر هذه السفينة يعرف عن الرحلة المزمع القيام بها أكثر مما يعرفه هو ، وهذا وضع غير عادل ولا يليق به كقبطان للسفينة .

- وأنه سمع من أحد البحارة أننا ذاهبون للبحث عن كنز . وهذا في حد ذاته يعتبر مغامرة خطيرة غير مأمونة العواقب ، كما يعتبر مسألة حياة أو موت ، وهو يتوقع قتالاً سوف ينشب لا محالة ، إذا تم العثور على هذا الكنز.

- أنه لا يرتاح إلى معظم البحارة الذين تم اختيارهم والذين سيعملون تحت إمرته .. وأنه لا يرتاح كذلك إلى مستر « أرو » ضابط أول السفينة لأنه يختلط مع طاقم البحارة ويعاملهم بصداقة وبطريقة ودية للغاية ، فالضابط البحري الجيد يجب ألا يختلط مع البحارة ويجب ألا يشرب الخمر معهم .

- أنه لاحظ أيضًا أن الرجال الأربعة التابعين لمستر «تريلاوني» سينامون مع البحارة في كبائنهم، ومن الأفضل أن نهيئ لهم مكانًا مناسبًا بجوارنا.

- أنه سمع من أحد البحارة أن لديكم خريطة لإحدى الجزر ، وأن هذه الخريطة عليها علامات بالحبر الأحمر تدل على مكان الكنز ، ومن الأفضل أن يتم إخفاء هذه الخريطة في مكان سري .

وقد قبل الدكتور «لايفسي» هذه الملاحظات ووافق عليها بترحاب ، أما مستر « تريلاوني » فقد وافق عليها على مضض .

وبعد قليل وصل « جون سيلفر الطويل » ومعه آخر مجموعة من الرجال الذين سيعملون على السفينة . وصعد « جون سيلفر » بسرعة القرد إلى سطح السفينة ، وعندما شاهد بعض الرجال الذين كانوا ينقلون الأسلحة والبارود إلى المكان الذي اختاره القبطان، صاح فيهم قائلاً: ما هذا ؟ .. ماذا تفعلون؟!

فأجابه القبطان على الفور : إنهم ينقلون الأسلحة والبارود يا «جون» .. وهذا ليس من اختصاصك، وعليك أن تذهب إلى مطبخ السفينة فورًا لتجهز العشاء لكل الرجال !

وأطاع « جون سيلفر » أوامر القبطان فورًا ..

وعندما شاهدني القبطان وأنا أجرب إحدى البنادق التي كان الرجال ينقلونها إلى المكان الجديد ، صاح بي قائلاً : وأنت يا فتى السفينة .. اترك هذه البندقية واذهب إلى المطبخ لتساعد الطباخ في عمله !

وهنا ، شاركت مستر « تريلاوني » في رأيه في « الكابتن سموليت » .. وبدأت أكرهه بعمق !

- **وبدأت الرحلة ومفاجآتها**

خرجت السفينة « هيسبانيولا » من ميناء بريستول وأصبحت في عرض البحر .. كانت السفينة ممتازة إلى حد كبير .. وكان البحارة ممتازين أيضًا ، كما كان القبطان يعرف عمله ويجيده . ولكن قبل أن تصل السفينة إلى جزيرة الكنز حدث شيئان أو ثلاثة أشياء لابد من الإشارة إليها .

كان مستر « أرو » ضابط أول السفينة يشرب كثيرًا من الخمر إلى أن يفقد توازنه .. وفي إحدى الليالي المظلمة كان يسير على سطح السفينة مترنحًا لكثرة ما شربه من خمر فسقط في البحر واختفى .

ولاحظت أن البحارة كلهم كانوا يحترمون « جون سيلفر » ويطيعونه ، ويطلقون عليه اسم « الخنزير المشوي » كنوع من التقدير . وكان « جون سيلفر » من جانبه يعاملهم معاملة طيبة . وكان يبدي سروره بي حين كنت أذهب إليه في المطبخ الذي جعله مكانًا نظيفًا وجميلاً للغاية ، تتراص فيه صفوف من الأطباق النظيفة اللامعة معلقة على الرفوف .. وكان يحتفظ في المطبخ بقفص فيه ببغاء جميل أطلق عليه اسم « الكابتن فلينت » .

وكان هناك في أحد جوانب السفينة برميل كبير مملوء بالتفاح ، ويستطيع كل فرد في السفينة أن يأخذ تفاحة في أي وقت يريد .

وعندما أوشكت رحلة الذهاب إلى جزيرة الكنز على نهايتها ، وأصبحنا نتوقع ظهور أرض الجزيرة خلال ساعات قليلة .. وكان الوقت بعد غروب الشمس بقليل ، تاقت نفسي إلى الحصول على تفاحة ، فتوجهت إلى حيث يوجد برميل التفاح .

ولم تكن هناك سوى تفاحة واحدة في قاع ذلك البرميل الكبير الذي كان من قبل مملوءًا عن آخره بالتفاح . وحتى أصل إلى تلك التفاحة ، تسلقت حافة البرميل وقفزت إلى داخله .

وبعد لحظة أحسست كأن رجلاً ما قد استند على جانب البرميل وبدأ يتكلم في الظلام .. وسمعت بعض كلمات جعلتني أصاب بالرعب ، ومنعتني تمامًا من عمل أية حركة .. كان المتحدث هو « جون سيلفر » .. وكان الحديث فظيعًا جعلني أنكمش في قاع البرميل والخوف يملأ قلبي .

وبناء على تلك الكلمات التي سمعتها ، أصبحت حياة جميع الرجال الأمناء على ظهر السفينة متوقفة عليَّ أنا وحدي !

- **القراصنة يتآمرون ضدنا**

قال « جون سيلفر » وهو يحاول ضم أحد البحارة الأمناء إليه :

إن القراصنة هم « سادة الحظ » .. إنهم يعيشون حياة خشنة ويخاطرون بحياتهم وقد يتعرضون للشنق.. ولكنهم يأكلون ويشربون أحسن المأكولات والمشروبات .. وعندما تنتهي إحدى مغامراتهم تمتلئ جيوبهم بمئات الجنيهات ويعيشون حياة رغدة .. وإذا كانوا من الأذكياء فإنهم يحتفظون بأموالهم ويستثمرونها بطريقة جيدة .. أما الأغبياء فإنهم يبددون أموالهم في شرب الخمر والتمتع بالملذات.. أنا مثلاً عندما عملت ضمن عصابة القرصان « الكابتن إنجلاند » كسبت تسعمائة جنيه .. وعندما عملت مع القرصان « الكابتن فلينت » كسبت ألفين من الجنيهات .. وأنا أحتفظ بأموالي هذه في مكان أمين وأستثمرها بطريقة جيدة .. أما الأغبياء مثل الرجل الأعمى « بيو » فقد بددوا الأموال التي كسبوها من القرصنة واضطروا إلى التسول والسرقة لكي يجدوا طعامهم .. وأنت شاب شجاع وعاقل وطموح وذكي .. وستحصل على أموال طائلة إذا انضممت إلينا وتصبح واحدًا من «سادة الحظ» .. فما رأيك ؟!

وكان من الواضح أن هذا البحار الشاب قد اقتنع تمامًا بكل ما قاله «جون سيلفر» .. فقد تعهد له بالانضمام إليه .. ولكن البحار الشاب عاد وتساءل عن بقية « سادة الحظ » الآخرين الموجودين على ظهر السفينة .. فأجابه «جون سيلفر» بكل ثقة إن معظم « سادة الحظ » الذين عملوا مع «الكابتن فلينت» موجودون الآن على ظهر السفينة وقد اختارهم بنفسه ليعملوا كبحارة ..

وأطلق « جون سيلفر » صفارة قصيرة خافتة فجاء على الفور رجلان هما البحار « ديك » والبحار « إسرائيل هاندز » .. فهنأهما « جون سيلفر » بانضمام عضو جديد إلى « سادة الحظ » . وتساءل « إسرائيل هاندز » عن موعد بدء العمل لأنه ضاق ذرعًا بالكابتن « سموليت » الذي يعامله بفظاظة .. وإنه لن يهنأ إلا بعد أن يقتله بيديه ويقتل مستر « تريلاوني » والدكتور «لايفسي» ويحصل على نصيبه الكامل من الكنز .. فقال « جون سيلفر » :

تذرع بالصبر يا صديقي واعلم أن كل الأمور في صالحنا .. فالكابتن «سموليت» يقود لنا السفينة بكفاءة عالية .. والمستر «تريلاوني» والدكتور «لايفسي» يحتفظان لنا بالخريطة السرية .. كما أنهما سيبذلان كل جهد للحصول على الكنز من أجلنا ، بل وسيساعدانا في نقل الكنز إلى ظهر السفينة وبعدئذٍ ستتخلص منهما بالقتل بمجرد أن يصبح الكنز في حيازتنا .. فالقتل هو أفضل السبل للتخلص منهما .. تمامًا مثلما كان يفعل «الكابتن فلينت» و« الكابتن بيل بونز » في هذه الظروف !

وهنا بدأ الجميع يغنون أغنية قبيحة أعرف كلماتها جيدًا ، فهي نفس الأغنية التي كان يغنيها « الكابتن بيل بونز » حين كان مقيمًا في حانتنا .

وفي الوقت نفسه ، سمعت صياح الرجل المكلف ببرج المراقبة وهو يقول بفرح : الأرض .. الأرض !!

- **خطة الحرب**

اندفع كل الرجال الموجودين على ظهر السفينة صوب الجانب المطل على أرض الجزيرة التي ظهرت واضحة في ضوء القمر . وبذلك استطعت أن

أخرج من برميل التفاح واتجهت فورًا إلى الدكتور « لايفسي » وأخبرته هامسًا بأن لديَّ أخبارًا خطيرة ومفزعة ، وطلبت منه أن يذهب هو ومستر «تريلاوني» إلى حجرة الكابتن « سموليت » لأبوح لهم بكل ما عرفته من أسرار المؤامرة .

وبأقل عدد من الكلمات ، أخبرتهم بما يدبره « جون سيلفر » والرجال الآخرون .. وكانوا ينصتون إليَّ بإمعان ولم يقاطعني أحد بكلمة .. وما إنْ انتهيت من حديثي ، حتى قال مستر « تريلاوني » موجهًا حديثه للكابتن «سموليت» : إني أعترف لك الآن يا كابتن بأنك كنت على صواب في شكوكك .. وأعترف لك بخطئي وبغبائي .. وإني الآن في انتظار أوامرك !

فقال الكابتن «سموليت» : ليس هناك أحد أغبى مني أنا .. فقد استطاع «جون سيلفر» هذا أن يخدعني بخبثه ودهائه وتظاهره بطاعتي .. إنه أذكى مني .. ولكن هذا الندم لن يجدي شيئًا .. إن علينا الآن أن نستعد لمواجهة كل المخاطر المحتملة .. وعلينا أن نتظاهر بأننا لا نعرف شيئًا عن تلك المؤامرة التي تدبر ضدنا .. إن عدد الرجال المخلصين التابعين للمستر «تريلاوني» ثلاثة .. ونحن أربعة بما فينا « جيم هوكينز » ..

وجميع الرجال الموجودين على ظهر السفينة عددهم ستة وعشرون رجلاً .. ومعنى هذا ببساطة أننا سبعة ضد تسعة عشر خائنًا، لأننا لا نعرف عدد الرجال الأمناء الذين سينضمون إلينا .. ولا نعرف مَنْ هم حتى الآن. كما أن علينا أن نراقب الجميع بعناية دون أن نشعرهم بذلك .. ولن نبدأ القتال إلا بعد أن نعرف الرجال الذين سيقفون إلى جانبنا .

• **وبدأت سلسلة الجرائم**

ويسبب عدم هبوب الرياح المناسبة تأخر رسو السفينة داخل الخليج الصغير ، ثم عقد القبطان اجتماعًا حضره مستر « تريلاوني » والدكتور «لايفسي» عرض فيه القبطان خطته في مواجهة المواقف والأخطار المتوقعة. وبعد الاتفاق على تنفيذ تلك الخطة، خرج القبطان وطلب من «جون سيلفر» تجميع كل الرجال العاملين على ظهر السفينة ، وألقى القبطان خطبة شكر فيها الجهود التي بذلها الرجال أثناء الرحلة، وقال إنه يسمح لمن يريد الذهاب للنزهة على شاطئ الجزيرة بأن يستعملوا قوارب السفينة للذهاب إلى تلك النزهة.. وقال لهم إنه سيطلق طلقة من البندقية في الهواء قبل غروب الشمس بنصف ساعة لكي يدعوهم للعودة إلى السفينة .

ابتهج الجميع بهذا القرار كما لو كانوا يظنون أنهم سوف يعثرون على الكنز بمجرد نزولهم إلى شاطئ الجزيرة . وعندما انصرف القبطان بعد أن ألقى هذا القرار ، أخذ « جون سيلفر » يتنقل بين الرجال محاولاً تنظيم هذه النزهة لانتهاز فرصتها لتسوية الأمور الخاصة بالخطط التي وضعها .. وقد انتهت تنظيمات «سيلفر» سريعًا، فقد أبقى على ستة رجال ليكونوا على ظهر السفينة، أما الباقون وعددهم ثلاثة عشر رجلاً بمن فيهم «سيلفر» نفسه فقد توجهوا جميعًا إلى القوارب للقيام بتلك النزهة .

وهنا طرأت في ذهني أول فكرة من الأفكار الجنونية التي كان لها دخل كبير في إنقاذ حياتنا فيما بعد .. فقد قفزت إلى أحد القوارب التي ركبها هؤلاء الرجال . وما إنْ وصل القارب إلى أرض الشاطئ ، حتى قفزت منه وجريت بأقصى ما أستطيعه من قوة وسرعة .. وأخذت أجري في خط مستقيم ، ولم أتوقف إلا عندما شعرت بأني لا أستطيع أن أجري خطوة واحدة أبعد من ذلك .

وبعد أن استرحت قليلاً ، أخذت في البحث عن مكان مناسب أختبئ فيه، ويمكنني في الوقت نفسه مراقبة « جون سيلفر » والرجال الذين ذهبوا معه .. ولحسن الحظ وجدت ربوة عالية تعلوها غابة صغيرة كثيفة الأشجار والنباتات العشبية فاختفيت داخلها ، وتسلقت إحدى الأشجار العالية ، ومن هناك شاهدت الرجال وقد تجمعوا عند السفح . وشاهدت جريمة بشعة اقشعر لها كل بدني وملأت قلبي بالخوف والهلع .. لقد أمر «جون سيلفر» بقتل اثنين من البحارة الأمناء رفضا الاشتراك معه في الجريمة التي يدبرها ضدنا ..!

وعندئذٍ تيقنت أني سألقى نفس المصير إذا تمكن هؤلاء الرجال المجرمون من العثور على مخبئي .. فلذت بالفرار مرة أخرى متوغلاً داخل الجزيرة .

- **رجل الجزيرة**

تسلقت تلاً غير مرتفع يطل على دغل من الأشجار كثيفة الفروع والأوراق .. وفوجئت بمواجهة خطر جديد ، فقد رأيت رجلاً اعتقدت في البداية أنه من رجال الغابات المتوحشين الذين سمعت عنهم في الحكايات .. ولكنني تيقنت بعد قليل أنه رجل من الرجال العاديين بالرغم من الأسمال الغريبة التي كان يغطي بها جسمه وبالرغم من طول شعر رأسه ولحيته .

واطمأن قلبي قليلاً عندما تأكدت من أن هذا الرجل غير مسلح ، وزاد اطمئناني حين تحسست المسدس الذي كنت أحمله معي لأستخدمه في الدفاع عن نفسي وقت اللزوم .. وتقابلت مع هذا الرجل وجهًا لوجه وسألته : مَنْ أنت ؟!

وفوجئت بأن الرجل هادئ الطبع وطيب ، وأخذ يحكي لي حكايته الغريبة بكل صدق ، فقال : اسمي « بن جن » .. وأنا أعيش في هذه الجزيرة منذ ثلاث سنوات لم أر فيها أي إنسان غيرك .. لقد كنت فيما مضى أعمل بحارًا في سفينة « فيل البحر » التي كان يقودها القرصان « الكابتن فلينت » الذي اختار هذه الجزيرة ليخبئ فيها كنزه . وقد نزل « الكابتن فلينت » إلى شاطئ هذه الجزيرة ومعه ستة من رجال السفينة ساعدوه في دفن الكنز وإخفائه .. وعاد « الكابتن فلينت » وحده إلى السفينة بعد أن قتل هؤلاء الرجال الستة جميعًا حتى لا يعرف مكان الكنز أحد غيره .. وبعد أن تركت العمل مع « الكابتن فلينت » قررت الامتناع عن القرصنة ، واشتغلت بحارًا في إحدى السفن التجارية العادية . وبينما كانت هذه السفينة تقوم برحلة بحرية مررنا بالقرب من هذه الجزيرة التي خبأ فيها « الكابتن فلينت» كنزه الثمين .. وأخبرت زملائي من البحارة الآخرين بقصة هذا الكنز ، فطلبوا من قبطان السفينة أن يتوقفوا للبحث عن الكنز ، فوافق القبطان على مضض .. ونزلنا جميعًا إلى الشاطئ ، وبدأنا البحث الذي استمر اثني عشر يومًا دون جدوى .. وفي كل يوم من تلك الأيام كان يزداد غضب الرفاق وغيظهم . وفي صباح أحد الأيام ، تأهبوا جميعًا للعودة إلى السفينة ، وقالوا لي : لن تعود معنا يا « بن جن » .. سنعطيك بندقية وفأسًا لتواصل البحث عن كنزك الوهمي ولتأخذه لنفسك .. وتركوني وحدي في تلك الجزيرة غير المأهولة .. وهكذا بقيت وحدي لمدة ثلاث سنوات متواصلة .. ومنذ ذلك اليوم وحتى الآن ، لم أذق لقمة واحدة من طعام جيد .. وكم أتمنى أن أذوق قطعة صغيرة من الجبن !

قلت له على الفور : لو كنت أستطيع العودة إلى السفينة لأحضرت لك قطعة كبيرة من الجبن .. ولكني لا أستطيع ..

وهنا اندهش «بن جن» من قولي ، وتساءل عن السبب في عدم استطاعتي العودة إلى السفينة ، فحكيت له حكايتنا من أولها إلى آخرها .. واندهشت أنا أيضًا عندما علمت أن « بن جن » يعرف « جون سيلفر » وأسماء الكثيرين من القراصنة الآخرين الذين يعملون كبحارة على سفينتنا .. وقال لي إننا نواجه أخطارًا حقيقية ، لأن هؤلاء القراصنة من القتلة المجرمين الذين لا يتورعون عن ارتكاب أية جريمة .. ولكنه طمأنني عندما قال وهو يشير إلى صخرة بيضاء ضخمة: لديَّ قارب صغير صنعته بنفسي، وأحتفظ به تحت هذه الصخرة البيضاء هناك .. ونستطيع أن نصل به إلى السفينة بعد أن يحل ظلام الليل .

وفجأة سمعت طلقة مدوية من مدفع السفينة.. ثم سمعت طلقات أخرى من أسلحة خفيفة .. ومعنى ذلك أن القتال قد بدأ .. وكم كانت دهشتي حين رأيت على بعد نحو ربع ميل من مكاننا ، العلم الإنجليزي يرتفع فوق عمود من الخشب !

ماذا يحدث يا ترى على ظهر السفينة؟.. وما سر هذا العلم الإنجليزي..؟!

قال « بن جن » بكل ثقة : من الواضح أن معركة نشبت بين أصدقائك والقراصنة .. وأن أصدقاءك هم الذين انتصروا .. ولجأوا بعد انتصارهم إلى « المحمية المسورة » التي رفعوا عليها العلم الإنجليزي .

قلت له على الفور : إذن علينا أن نذهب إليهم الآن !

قال بعد تردد : اذهب أنت الآن وحدك .. وأرجوك أن تقص حكايتي لمستر « تريلاوني » واطلب منه أن يعفو عني باعتباري كنت قرصانًا فيما مضى .. وأن يسمح لي بالعودة معكم إلى إنجلترا .. وأن يعطيني ألف جنيه فقط .. وهو جزء من مبلغ كبير موجود في حيازتي فعلاً .. فإذا وافق أصدقاؤك على ذلك فسوف أنضم إليكم فورًا .

وبينما كنت أستمع إلى شروط « بن جن » لانضمامه إلينا ، كنت سارحًا في تخيل منظر تلك « المحمية المسورة » التي كان مكانها محددًا في تفاصيل الخريطة التي أحفظها عن ظهر قلب . وأخيرًا ودَّعني « بن جن » بعد أن وعدني بأنه سيبذل كل جهده في حمايتنا والاشتراك في معاركنا ضد القراصنة.

- **في المحمية المسورة**

تسلقت سور المحمية وقفزت إلى داخلها ، ولا أستطيع أن أصف مدى الفرحة والحرارة التي استقبلني بها أصدقائي.. وبطبيعة الحال فقد قصصت عليهم كل تفاصيل قصتي منذ أن غادرت السفينة حتى هذه اللحظة ، وتفاصيل جريمة القتل التي ارتكبها « جون سيلفر » ضد اثنين من البحارة الأمناء لم يوافقا على الانضمام لعصابته .. وتفاصيل عثوري على «بن جن» وحكايته الغريبة .

كما قص عليَّ الدكتور « لايفسي » كيف قرروا مغادرة السفينة بعد أن سيطروا على الرجال الستة الذين كانوا على ظهرها .. وكيف انضم إليهم أحد هؤلاء الرجال .. وكيف نقلوا من السفينة كل ما يحتاجونه من أسلحة وبارود ومؤن .. وكيف نشبت معركة بينهم وبين الرجال الخمسة الباقين على ظهر السفينة حيث قام هؤلاء الرجال بتصويب مدفع السفينة وأطلقوه

عليهم ولكن الطلقة لم تصبهـم بأذى .. وأبلغني الدكتور بكل حزن أن أحد رجالنا وهو « ردروث » قد سقط قتيلاً في المعركة .

كانت المحمية المسورة عبارة عن بيت مبني بجذوع الأشجار غير المشذبة .. ومن خلال الفتحات والشقوق بين جذع وآخر كانت تهب علينا رياح النهار الساخنة ورياح الليل الباردة محملة بالرمال الناعمة .. وهكذا ملأت الرمال عيوننا .. وأصبحنا نحس بالرمال بين أسناننا ، كما كانت الرمال تختلط بأي طعام نأكله .. أما المدخنة فقد كانت عبارة عن فتحة مربعة الشكل بأعلـى السقف ، لا يتسرب منها إلا القليل من الدخان ، أما بقية الدخان فكانت رائحته تنتشر في كل أنحاء البيت وتؤذي عيوننا .

وبطبيعة الحال فقد كان الكابتن « سموليت » قائدًا ممتازًا .. فقد قسمنا إلى مجموعات سماها «نوبات المراقبة». تتكون المجموعة الأولى مني ومن الدكتور « لايفسي » و« هنتر » و« جويس » .. وتتكون المجموعة الثانية من مستر «تريلاوني» و« جراي » .. كما عين الدكتور « لايفسي » كطباخ للجماعة ، وعينني حارسًا على البوابة .. أما هو فلم ينقطع عن الانتقال بين كل فرد منا ليطمئن على تنفيذ الواجبات بكل دقة ، وكان يشجع الجميع ويقدم لنا أية مساعدة نطلبها .

وبعد تناول العشاء ، اجتمع الرؤساء الثلاثة ليتشاوروا في أمر موقفنا ووضعنا داخل هذه المحمية، وأمر المعارك المحتملة التي سوف نخوضها.. خصـوصًا بعد أن نقص عـدد أعدائنا من تسعة عشر رجلاً إلى خمسة عشر رجلاً ..

وقرب منتصف الليل استغرقت في النوم لشدة ما كنت أعانيه من تعب وإجهاد .. واستيقظت في الصباح الباكر على أصوات تصيح : هناك شخص قادم يرفع علمًا أبيض ! .. ثم سمعت صوتًا آخر يقول : إنه « جون سيلفر » بنفسه !!

وقفزت على الفور لأرى ما سوف يحدث ، من خلال ثقب في الحائط !

- **شروط جون سيلفر**

جاء « جون سيلفر » في صحبة رجل آخر ، وهو الرجل الذي كان يحمل العلم الأبيض .. وقال « سيلفر » إنه جاء ليعرض علينا السلام . وتفاوض معه الكابتن « سموليت » الذي كان يحادثه بكل احتقار .. وفي البداية أعلن «جون سيلفر» أن هجومنا عليهم ليلة الأمس قد أسفر عن مقتل أحد الرجال .. وأنه لن يسمح لنا مرة أخرى بالهجوم عليهم .. وفهمت من ذلك أن « بن جن » هو الذي قام وحده بهذا الهجوم لأننا لم نغادر المحمية ليلة الأمس .

ثم بدأ « سيلفر » في عرض شروطه بكل هدوء .. قال إن علينا أن نعطيهم الخريطة .. وأن نتوقف عن إطلاق النار عليهم .. وألا نتسلل ليلاً لنحطم رءوس بعض الرجال وهم نائمون .. وفي مقابل ذلك فإنهم يعطوننا فرصة الاختيار بين أحد أمرين : إما أن نرحل معهم على السفينة ثم يتركوننا أحياء على أي شاطئ مأهول آخر .. أو يتركوننا هنا في هذه الجزيرة على أن يعطونا بعض المؤن والمهمات مع وعد منهم بأن يرسلوا إلينا أية سفينة يرونها في البحر لإنقاذنا .

وبعد أن انتهى «سيلفر» من عرض شروطه، أشعل الكابتن «سموليت» غليونه وقال بحسم : والآن يا « سيلفر » عليك أن تسمع شروطنا .. عليكم

جميعًا أن تتجردوا من سلاحكم .. وأن تحضروا مستسلمين واحدًا وراء الآخر .. وأنا أتعهد بأن آخذكم معي إلى الوطن حيث تقدمون أمام محاكمة عادلة في إنجلترا .. وإذا رفضتم ذلك .. فأنا اسمي الكسندر سموليت .. وأنا أخدم في البحرية تحت العلم الإنجليزي .. وسوف أراكم جميعًا موتى على أرض هذه الجزيرة.. ولن تعثروا على الكنز.. ولن تستطيعوا الإبحار بالسفينة لأن أحدًا منكم لا يعرف شيئًا عن قيادة السفن.. ولن تستطيعوا محاربتنا لأننا أقوى منكم .. هذه هي آخر كلماتي .. وإذا رأيتك هنا مرة أخرى فسوف أطلق عليك النار فورًا .. هيا .. انصرف .. أخرج من هنا بسرعة !

وصاح « جون سيلفر » غاضبًا وهو ينصرف : سنرى !!

- **الهجوم**

بدأ الهجوم علينا وقت الظهر ، بعد أن وصلت حرارة الشمس إلى درجة لا تطاق . وانهمر علينا الرصاص من كل جانب ، بل استطاع أربعة من القراصنة أن يتسلقوا سور المحمية واقتحموا علينا البيت . وهنا دارت معركة شرسة بالسيوف إلى جانب معركة البنادق .. وكدت ألقى حتفي أثناء تلك المعركة لولا دفاع الدكتور عني .. وانتهت المعركة لصالحنا بالرغم من الخسائر الجسيمة التي لحقت برجالنا ، فقد مات اثنان منا هما «هنتر» و«جويس» ، كما جرح الكابتن « سموليت » .. أما القراصنة الأشرار فقد فروا جميعًا من أرض المعركة واتجهوا إلى الاختباء داخل الغابة بعد أن سقط منهم خمسة قتلى .. وقال الكابتن « سموليت » وهو يحسم نتيجة المعركة : لقد أصبحنا الآن أربعة ضد ثمانية من المجرمين !

- **قارب بن جن**

وفي فترة بعد الظهر جلس الرؤساء الثلاثة يتشاورون في الأمر ويضعون الخطط لمواجهة المعارك التالية المحتملة .. ثم لاحظت أن الدكتور «لايفسي» قد وضع قبعته على رأسه ، وحمل مسدساته ، وعلق بندقيته على كتفه ، ووضع الخريطة في جيبه ، وعبر سور المحمية ، ودخل مباشرة إلى الغابة .

وكنت جالسًا مع « جراي » لحراسة البيت ، فتساءل جراي في دهشة : هل الدكتور « لايفسي » مجنون ؟! .. فقلت على الفور : الدكتور «لايفسي» من أعقل الناس .. وأعتقد أنه ذاهب ليقابل « بن جن » .. وكان اعتقادي صحيحًا ، كما علمت فيما بعد .

وطرأت في ذهني فكرة من الأفكار الجنونية .. فقد صممت بيني وبين نفسي أن أتسلل إلى الخارج دون أن يراني أحد .. وتوجهت إلى حيث نحتفظ بالخبز ، فملأت جيوبي ، وأخذت مسدسين محشوين بالرصاص وجاهزين للإطلاق ، كما أخذت بعض البارود حتى أتمكن من حشو المسدسين مرات أخرى ، وتسللت خارجًا بكل خفة .

لم تكن فكرتي فكرة سيئة .. فقد أردت أن أتأكد من وجود القارب الذي صنعه « بن جن » وخبأه خلف الصخرة البيضاء !

وقد عانيت مشقة هائلة حتى وصلت إلى مكان القارب قبيل غروب الشمس ، وفوجئت بأنه قارب بدائي مصنوع بطريقة خشنة من الخشب وجلد الماعز ، وكان صغيرًا وضيقًا حتى بالنسبة إلى حجم جسمي .

وعندئذ طرأت في ذهني فكرة أخرى .. قررت أن أركب هذا القارب الصغير ، وأتسلل به إلى حيث ترسو السفينة « هيسبانيولا » ، وأقطع الحبال

التي تربطها بقاع البحر ، فتصبح حرة الحركة وغير مقيدة بشيء ، فتتلاعب بها الأمواج وتتقاذفها الرياح إلى أن ترتطم بأي مكان آخر على شاطئ الجزيرة.

وكان في اعتقادي أن الهزيمة التي واجهها القراصنة ربما ستدفعهم إلى التفكير في العودة إلى السفينة والإبحار بها .. وسيكون من الأفضل إذن منعهم من الفرار بالسفينة .

وانتظرت حتى أصبح ظلام الليل كثيفًا، وكانت السماء ملبدة بالسحب، كما كان الجو مناسبًا للقيام بتلك المغامرة على خير وجه .. وحملت القارب الصغير فوق كتفي ، ووضعته على سطح الماء ، وركبت فيه ..!

- **وأنزلت علم القراصنة**

بذلت جهدًا جبارًا في السيطرة على هذا القارب البدائي الذي كان يلف ويدور حول نفسه مهما حاولت توجيهه للسير في طريق مستقيم .. إلى أن اقتربت في النهاية من موقع السفينة التي كانت تبدو أكثر سوادًا من الظلام الذي كان يلفها ويلف كل شيء حولها . وبعد لحظات قليلة استطعت أن أمسك بالحبل الذي كان يربطها بقاع البحر .

وفوجئت بوجود رجلين فوق ظهر السفينة ، كانا في حالة سكر بيّن ، وكانا يتبادلان اللعنات والشتائم البذيئة والضربات العنيفة . وقد ساعدني هذا الموقف في مواصلة قطع الحبل بالسكين إلى أن انقطع الحبل السميك في نهاية الأمر ، وأصبحت السفينة طليقة حرة ، فأخذت تدور حول نفسها ، وتتجه شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالاً بلا هدف ولا ضابط ولا رابط .

وأخشى ما كنت أخشاه أن تصطدم السفينة بالقارب فتسحقه وتسحقني معه . وبالرغم من خوفي من هذا المصير ، فقد تغلّب النعاس على مخاوفي .. واستغرقت في النوم .. وحلمت بالوطن .. وبأمي .

وعندما استيقظت في الصباح الباكر ، وجدت السفينة وقد ابتعدت عن القارب بمسافة طويلة ، وكانت تتأرجح وتتمايل ، فأخذت أجدف بكل همة حتى اقتربت منها .. وفجأة اندفعت السفينة بكل قوة نحو القارب ، وقبل أن تصطدم به وتحطمه ، استطعت أن أتعلق بحبل كان متدليًا على جانبها ، ونجوت من موت كان محققًا .

وتسلقت جانب السفينة ، ثم قفزت إلى سطحها.. وهناك رأيت الرجلين، وكان أحدهما « إسرائيل هاندز » .. كانا راقدين بلا حراك .. وتتناثر حولهما بقع كثيرة وكبيرة من الدماء الداكنة .. لقد كان واضحًا أن كلًّا من الرجلين قد قتل الرجل الآخر !

وكان أول شيء فعلته عندما أصبحت على ظهر السفينة ، هو إنزال علم القراصنة الذي كان معلقًا على الصاري، ورفعت العلم الإنجليزي.. وعندما فحصت الرجلين ، وجدت أحدهما قد مات فعلاً ، ولاحظت أن «إسرائيل هاندز» كان يتحرك بوهن وضعف ، ويئن أنينًا خافتًا بطريقة مخيفة مفزعة برغم الضعف الشديد البادي عليه ، وكان فمه مفتوحًا عن آخره .. وأخيرًا استطاع أن ينطق كلمة واحدة : روم !

قلت له : لقد جئت لأسيطر على السفينة يا مستر « إسرائيل هاندز » .. وعليك أن تتذكر من الآن فصاعدًا أني قائدك ورئيسك .. أنا الكابتن هنا ! وسوف أعطيك زجاجة كاملة من الروم بشرط أن تساعدني في الإبحار بالسفينة حتى نصل إلى الخليج الشمالي ونرسيها هناك !

فقال « إسرائيل هاندز » : موافق يا كابتن « هوكينز » .. هذه صفقة عادلة.

وأحضرت له زجاجة روم ، فشرب ربعها مرة واحدة ، واستعاد على الفور بعض قوته ، وبدأ يرشدني إلى الطريقة الصحيحة للإبحار بالسفينة إلى الجهة التي حددتها .. إلى أن رست السفينة في نهاية الأمر واستقرت فوق الرمال الناعمة .. وكانت عملية قيادة السفينة عملاً مثيرًا ومبهجًا بالنسبة لي بالرغم من إحساسي بكلِ المخاطر الأخرى المحتملة .

وفور رسو السفينة على هذا النحو ، لاحظت أن « إسرائيل هاندز » قد اتجه نحو إحدى ربطات الحبّال القريبة ، وأخرج منها سكينًا ذات نصل طويل حاد ، واتجه نحوي يريد أن يقتلني .. فأسرعت بإخراج أحد المسدسين اللذين كنت أحملهما معي طول الوقت، وأطلقته بمنتهى السرعة، ولكن الرصاصة لم تنطلق لأن البارود كان مبتلاً .. ولذلك فقد أسرعت بالجري .. ولكن أين المفر . . فإلي أي مكان أستطيع أن أهرب إليه ، يستطيع « إسرائيل هاندز » أن يلاحقني فيه بالرغم من بطء خطواته. وأخيرًا تنبهت إلى أن حبال الشراع العالية هي المكان الوحيد الذي يجب أن ألوذ به لأنقذ نفسي من هذا الخطر الداهم .. فأخذت أتسلق حبال الشراع بأقصى سرعة إلى أن وصلت إلى مكان مرتفع لن يستطيع هذا القرصان القاتل أن يصل إليه ..

وهناك وجدت الفرصة سانحة لإعادة حشو المسدسين بالبارود الجاف، وأصبحا الآن صالحين للاستعمال .. وعندئذ صحت قائلاً : يا إسرائيل هاندز .. لو تحركت حركة واحدة ، فسوف أطلق عليك النار وأقتلك !

وعندئذ توقف عن الحركة ورفع يديه كما لو كان يريد أن يستسلم .. وكانت السكين مازالت بيده اليمني .. وفوجئت به يقذفها بكل قوته ..

ولمحت النصل اللامع وهو يطير في الهواء مثل السهم ، وشعرت بألم مفاجئ في أعلي كتفي .

كان الألم شديدًا .. ومع ذلك فقد ضغطت على زنادي المسدسين دون أن أصوّب على هدف معين . وسقط المسدسان من يدي في نفس اللحظة .. ولكنهما لم يسقطا وحدهما .. فقد سقط معهما « إسرائيل هاندز » .. سقط برأسه أولاً .. واتجه إلى قاع البحر !

• **في معسكر الأعداء**

هبطت على حبال الشراع ، وضمّدت جرحي الذي لم يكن عميقًا ولا خطيرًا ، بالرغم من الدماء الغزيرة التي سالت منه .

والآن.. ها هي السفينة «هيسبانيولا» أصبحت تحت سيطرتي وحدي.. وأصبح من واجبي أن أنظفها من آخر راكب فيها ، وهو القرصان القتيل الذي تتكوم جثته في أحد أركان سطح السفينة .. ولم يكن هذا العمل سهلاً أو بسيطًا ، وعانيت كثيرًا حتى استطعت في النهاية أن أرفع جثته وأقذفها إلى قاع البحر .

ثم أخذت أعمل بكل همة حتى طويت أشرعة السفينة ، وجعلت كل شيء على ظهرها آمنًا .. وبدأ الظلام يتسلل إلى الخليج ، وأصبح الوقت مناسبًا لمغادرة السفينة والعودة إلى أصدقائي في المحمية المسورة لأخبرهم بكل تفاصيل عملية استرداد السفينة من أيدي القراصنة .

وفي ضوء القمر واصلت رحلتي الطويلة إلى أن وصلت إلى السور الخارجي للمحمية .. وقد لاحظت قلة الحراسة ، بل انعدام الحراسة تمامًا ،

واعتقدت أن ذلك ربما يرجع إلى إصابة الكابتن « سموليت » ومرضه ، فاستهان الأصدقاء بنوبات المراقبة وناموا .

وتسلقت السور ، ثم دخلت إلى باب البيت المبني بجذوع الأشجار وكانت قاعته الواسعة غارقة في ظلام دامس . وفجأة ، تعثرت قدمي في شيء طري ، كان جسم شخص نائم ، ثم سقطت فوق جسم رجل نائم آخر .. وقد هبَّ هذا الشخص من نومه وأخذ يصيح فأيقظ جميع الرجال الآخرين . وسمعت صوت « جون سيلفر » وهو يصيح : مَنْ هناك ؟!

وأسرع أحد الرجال بإحضار شعلة رأيت في ضوئها الخافت الوضع المخيف المرعب الذي أصبحت فيه .. فالقراصنة يسيطرون الآن على المحمية المسوَّرة .. ومعنى ذلك أنهم قتلوا جميع أصدقائي !

وقال « جون سيلفر » بهدوء : ها هو « جيم هوكينز » وقد جاء لزيارتنا .. فهل هي زيارة ودية يا ترى ؟!

لم أُجبْ بكلمة ، وبالرغم من شدة خوفي ، فقد جاهدت كثيرًا حتى أبدو شجاعًا .. وواصل « سيلفر » حديثه : أنت تعلم يا جيم أني كنت أحبك دائمًا .. وكنت أرغب باستمرار في أن تنضم إلينا .. فالكابتن «سموليت» رجل صعب في إجبار الآخرين على تنفيذ أوامره .. والدكتور « لايفسي » أصبح الآن ضدك .. فعندما كنت أتفاوض معه ، سألته كم عددكم .. فقال أربعة وأحدنا جريح .. أما الغلام « جيم هوكينز » فعليه اللعنة .. ولا أعرف أين هو .. لقد أتعبنا وسبب لنا الكثير من المشاكل وأصبحت لا أهتم بمصيره.. ولهذا فإنك لن تستطيع العودة إلى أصدقائك، وليس أمامك سوى أن تنضم إلى الكابتن « جون سيلفر » .. وسوف تحصل على نصيبك من الكنز .. تمامًا مثل أي واحد منا .. فما رأيك؟!



قلت وقد تملكتني بعض الشجاعة عندما عرفت أن أصدقائي مازالوا أحياء: أعتقد أن من حقي أن أعرف حقيقة ما حدث .. ولماذا أنتم هنا .. وأين ذهب أصدقائي ..؟!

قال « جون سيلفر » وهو يشعل غليونه : صباح أمس ، جاء إلينا الدكتور « لايفسي » وهو يرفع في يده علمًا أبيض .. وقال لنا إن السفينة «هيسبانيولا» قد أبحرت واختفت .. ونظرنا إلى الخليج حيث كانت السفينة راسية ، فلم نر شيئًا .. لقد اختفت السفينة فعلاً .. وطلب منا الدكتور « لايفسي » أن نتفاوض لنعقد اتفاقًا فيما بيننا .. وها هي النتيجة .. ها نحن داخل البيت المبني بجذوع الأشجار ومعنا الكثير من الطعام والمؤن ، والكثير من قطع الأخشاب المهيأة للاستخدام كوقود .. أما أصدقاؤك فقد رحلوا من هنا .. ولا أعرف أين ذهبوا !

وعندئذ قلت بانفعال وبكثير من الشجاعة والفخر : أنتم الآن في مأزق حقيقي .. فقد ضاعت السفينة .. وضاع الكنز .. وضاع العديد من رجالكم .. وتحطمت جميع آمالكم .. وإذا كنتم تريدون أن تعرفوا مَنْ حطمها ، فإني أقول لكم : أنا .. أنا الذي حطمتكم .. لقد كنت مختبئًا في برميل التفاح وسمعتك يا «جون سيلفر» وأنت تتآمر مع «ديك جونسون» و« إسرائيل هاندز » .. إن « إسرائيل هاندز » يرقد الآن جثة هامدة في قاع البحر .. ولقد أخبرت أصدقائي بكل كلمة سمعتها في تلك المؤامرة .. وأنا الذي قمت بتقطيع حبال السفينة وأطلقتها في البحر.. لقد هزمتكم منذ البداية .. وأنا لا أخاف منكم أكثر من خوفي من ذبابة .. اقتلني يا «جون سيلفر» .. اقتلني إذا كنت ترغب في ذلك !

ولشدة دهشتي لم يتحرك أحد من القراصنة ، بل ظلوا جميعًا يحملقون في وجهي مبهورين كالحملان الخائفة . وأخيرًا صاح القرصان « مورجان » قائلاً : إن هذا الغلام هو الذي تعرف على الكلب الأسود .

وأضاف « جون سيلفر » : وهو أيضًا الذي سرق الخريطة من الصندوق البحري الخاص بالكابتن « بيلي بونز » .

وهنا سحب « مورجان » سكينه وهجم نحوي وهو يصرخ : لابد أن نقتله !

فصاح به « جون سيلفر » : إياك أن تقترب من الغلام يا « مورجان » .. أنت غبي .. فهذا الغلام سيصبح رهينة لدينا نستطيع أن نساوم به في الحصول على مكاسب أخرى من أعدائنا ، ونستطيع أن نملي عليهم كل الشروط التي تحقق مصالحنا .. هل فهمت يا غبي ؟!

أدركت عندئذ أن « جون سيلفر » الماكر أصبح يلعب الآن لعبة ذات وجهين. وتأكد لي ذلك عندما انفرد بي بعيدًا عن القراصنة الآخرين، وقال بصوت أقرب ما يكون إلى الهمس : سأعقد اتفاقًا معك يا « جيم » .. فأنا أعتبر نفسي الآن في صف مستر « تريلاوني » وصفكم جميعًا .. وأنا أعرف أنك أخذت السفينة واحتفظت بها في مكان آمن .. وأنا مسرور لأنك تخلصت من « إسرائيل هاندز » فقد كنت دائمًا لا أثق فيه .. وأنا أعترف لك الآن بالهزيمة .. وإني على ثقة في أنك سوف تساعدني في المستقبل عندما نتخلص من هؤلاء القراصنة .

ومع ذلك فقد لاحظت أن القراصنة الخمسة الباقين من عصابة « جون سيلفر » أصبحوا يتهامسون كثيرًا فيما بينهم ، وأصبح من الواضح أنهم

ينوون إعلان العصيان ضده .. وأدرك « جون سيلفر » بذكائه أنه سيواجه المتاعب ، فجمع القراصنة الخمسة وألقى أمامهم ورقة كبيرة صفراء ، كانت هي نفس الخريطة التي رسمت عليها جزيرة الكنز ، وعليها العلامات الحمراء التي تحدد الموقع وكيفية الوصول إليه .

وأصبت بخيبة أمل ودهشة شديدة .. فقد كانت الخريطة هي نفس الخريطة الأصلية التي حصلت عليها من صندوق الكابتن « بيلي بونز » .. ولا أدري كيف حصل « جون سيلفر » عليها .. ولا أدري أيضًا ما السبب الذي جعل أصدقائي يتخلون عن هذه الخريطة بعد كل هذه المتاعب والمصاعب التي تجشمناها في سبيل الحصول على الكنز ..؟!

التقط القراصنة تلك الخريطة من على الأرض ، وأخذوا يفحصونها ويتداولونها فيما بينهم .. وأخذوا يطلقون الضحكات وصيحات الفرح ، كما لو كانوا قد عثروا على الكنز فعلاً ، وأبحروا عائدين به فوق ظهر السفينة .

وانتهز «جون سيلفر» هذه الفرصة وقال للقراصنة : والآن يا أعزائي.. عليكم أن تناموا هانئين .. وفي الصباح الباكر .. سنفك رموز الخريطة .. ونحصل على الكنز .. وسيأخذ كل واحد نصيبه العادل .

- **القراصنة يبحثون عن الكنز**

وفي صباح اليوم التالي ، استيقظ القراصنة مبكرين ، وتناولوا طعام إفطارهم بسرعة ، وتجمعوا وبدأوا طريقهم نحو مكان الكنز المحدد في الخريطة .. كان الطريق وعرًا .. ومع ذلك فقد كانوا يسيرون بكل همة .. كانوا جميعًا يلبسون ثيابًا ممزقة تعلوها القذارة .. وكلهم كانوا مسلحين فيما عداي وحدي .. بل لقد كنت مربوطًا من وسطي بحبل قوي يمسك «جون

سيلفر» بطرفه .. أحيانًا كان يمسكه بيده .. وأحيانًا كان يمسكه بأسنانه القوية .

وصلنا فوق تل شديد الانحدار وهو التل المؤدي إلى موضع الكنز المرتقب .. وكلما اقتربنا من هذا الموضع ظهرت على وجه « جون سيلفر » مشاعره الحقيقية .. وقد استطعت أن أعرف كل مشاعره وأفكاره كما لو كنت أقرؤها في صفحة مكتوبة ..

لقد أصبح الآن قريبًا من لحظة العثور على الكنز .. ونسي الآن كل شيء آخر .. لقد أصبحت وعوده لي نسيًا منسيًا . وكان من الواضح أنه يريد أن يأخذ الكنز ويبحر به ليلاً على ظهر السـفينة « هيسبانيولا » بعد أن يقطع رقبة كل شخص أمين في هذه الجزيرة .. كل أمله أن يفر بعد ذلك، وهو غارق في الذهب .. وغارق في الدماء !

وتوقف « جون سيلفر » لحظة ، وأخذ يضبط البوصلة طبقًا للإرشادات المبينة في الخريطة ليحدد مكان الكنز بكل دقة.. ثم صاح قائلاً: تعالوا ورائي!

وانطلق الجميع في أثره .. ولكنهم توقفوا فجأة على بعد عشر خطوات.. ووسط صيحات الجزع، والكلمات التي تعبر عن اليأس، رأينا المنظر البائس!

كانت هناك حفرة واسعة وعميقة .. تبدو وكأنها قد حفرت منذ زمن ، لأن بعض الحشائش كانت تنمو على جوانبها وعلى قاعها .. وكانت هناك فأس مكسورة ، وعديد من القطع الخشبية التي كانت فيما مضى صندوقًا يحتوي على الكنز .. ورأيت على أحد جوانب قطعة مكسورة من تلك الأخشاب اسم « فيل البحر » .. وهو اسم السفينة الخاصة بكابتن «فلينت» .. وكان الاسم محفورًا بقطعة من الحديد الساخن .

كل شيء أصبح الآن واضحًا .. فقد عثر أحدهم على الكنز منذ زمن ، واستولى عليه .. لقد أصبحت فكرة الحصول على الكنز ، مجرد فكرة طارت في الهواء !

- **التمرد على جون سيلفر**

لم يكن هناك يأس في أي مكان في هذا العالم يماثل يأس هؤلاء القراصنة الذين وقفوا مبهوتين بسبب تلك الصدمة الهائلة التي حطمت جميع آمالهم في غمضة عين .

ومن الغريب أن « جون سيلفر » تجاوز هذه الصدمة بسرعة ، وظل هادئًا مسيطرًا على أعصابه .. ويبدو أنه قد تمكن من تغيير أفكاره بسرعة لتتلاءم مع هذا الموقف الجديد .. وسمعته وهو يهمس لي قائلاً : جيم .. خذ هذا وكن مستعدًا لمواجهة المشاكل !

كان القراصنة الخمسة قد قفزوا كلهم داخل الحفرة ، وأخذوا يحفرون بأظفارهم في جوانبها .. ويفتشون بجنون كل شبر فيها .. وعثر «مورجان» على قطعة من الذهب ، فأمسكها بيده وهو يسب ويلعن .. وتبادل الرجال تناول هذه القطعة الذهبية فيما بينهم نحو ربع دقيقة .. ثم صاح أحد هؤلاء القراصنة في وجه « جون سيلفر » وقال بأعلى صوته : جنيه واحد .. هذا هو كل ما حصلنا عليه ! .. أين السبعمائة ألف جنيه التي كنت تتشدق بها طول الوقت أيها الغبي ..؟!

وخرج الرجال من الحفرة وتجمعوا على الجانب المواجه للجانب الذي نقف فيه أنا و« جون سيلفر » وصاح أحد القراصنة مشجعًا زملاءه على بدء الهجوم : هيا أيها الرجال .. إنهما اثنان فقط .. هذا العجوز الغبي ذو الساق

الواحدة والذي تسبب في إحضارنا إلى هنا .. وهذا الغلام الصغير الذي أريد أن أمزق قلبه بنفسي .. اهجموا الآن !

وفجأة .. انطلق الرصاص .. ولكن من داخل الغابة .. وسقط على الفور اثنان من القراصنة ، ولاذ الثلاثة الآخرون بالفرار ..

ما هذا الذي حدث ..؟!

لقد فوجئنا بظهور « بن جن » والدكتور « لايفسي » وما زال دخان البارود يتصاعد من فوهتي بندقيتيهما .. وصاح فينا الدكتور « لايفسي » : هيا نسرع خلفهم !

ولكن « جون سيلفر » قال بهدوء : لا داعي أن نتعب أنفسنا يا دكتور.. فلن يجسر أي واحد منهم على عمل أي شيء ضدنا.. وأنا أشكرك يا دكتور لأنك جئت في الوقت المناسب وأنقذت حياتي وحياة « جيم هوكينز » .. وها أنا أري «بن جن» ما زال حيًّا .. مرحبًا بك يا «بن جن» .. هل ما زلت تذكرني ؟!

وبدأنا نسير إلى حيث يوجد بقية أصدقائنا ..

- **سر الحكاية**

وفي أثناء الطريق روى لنا الدكتور « لايفسي » القصة باختصار وبكلمات قليلة .. وكانت قصة مدهشة أثارت « جون سيلفر » الذي أخذ يسمعها بشغف .. وتتلخص القصة في أن « بن جن » الذي كان يعيش وحيدًا في الجزيرة هو الذي عثر على الكنز .. (وكانت فأسه هي الفأس المكسورة التي رأيناها عند الحفرة) .. وحطم صندوق الكنز .. وحمل كل الذهب الذي كان مخبوءًا على دفعات كثيرة ، حيث أخفاه في كهف بأعلى التل ذي القمتين الذي

يقع في الجانب الشمالي الشرقي للجزيرة .. والكنز موجود الآن سليمًا في ذلك المكان .. ولقد انتهى « بن جن » من هذا العمل الشاق قبل وصول سفينتنا «هيسبانيولا» إلى الجزيرة بنحو شهرين .

لقد عرف الدكتور « لايفسي » هذا السر من « بن جن » نفسه حين ذهب لمقابلته بعد ظهر اليوم الذي قام فيه القراصنة بهجومهم الكبير .. وعندما لاحظ الأصدقاء أن السفينة قد اختفت ، أوفدوا الدكتور للتفاوض مع «جون سيلفر».. وتنازلوا له وللقراصنة عن كل شيء .. عن الخريطة الأصلية بعد أن أصبحت بلا فائدة .. وعن خزين الطعام (لأن « بن جن » كان يحتفظ في بيته بكميات كبيرة من لحم الماعز المملح الذي صنعه بنفسه) . لقد تنازلوا عن كل شيء في سبيل الحصول على حريتهم والخروج سالمين من البيت المبني بجذوع الأشجار ، ليذهبوا إلى التل ذي القمتين ، حيث المكان أفضل من الناحية الصحية ، وحيث يسهل الدفاع عن هذا المكان الجديد الذي يوجد به الكنز .

وقال الدكتور « لايفسي » في نهاية القصة ، إنهم كانوا يترقبون خروج «جون سيلفر» والقراصنة للبحث عن الكنز .. وبطبيعة الحال فإن القراصنة سيصحبوني معهم .. ومعنى ذلك أني سأكون موجودًا بينهم حين يكتشفون أن الكنز قد ضاع.. ومن المؤكد عندئذ أنهم كانوا سينتقمون مني ويقتلونني . لذلك فقد خرج الدكتور ومعه « بن جن » لإنقاذي ..

وطبعًا أبلغت الدكتور « لايفسي » بأني أنقذت السفينة من أيدي القراصنة وهي الآن ترسو آمنة في الخليج الشمالي .. وكم فرح الدكتور لدى سماع هذا الخبر .

وأخيرًا وصلنا إلى التل ذي القمتين حيث الكهف الذي أخفى فيه «بن جن» الكنز كله .. وكان مستر « تريلاوني » هو أول من استقبلنا .. وما إنْ رأى «جون سيلفر» حتى صاح في وجهه : جون سيلفر .. إنك رجل سيئ وشرير .. لقد طلب مني أصدقائي أن أساهم معهم في إنقاذك من الشنق .. ووعدتهم بذلك .. ولكن فلتعلم أن ذنب كل هؤلاء القتلى سيبقى معلقًا في رقبتك .. وأن ذكرياتك السوداء ستكون عقابك الدائم .

وبكل نعومة خلع « جون سيلفر » قبعته وانحنى لمستر «تريلاوني» وقال : شكرًا لك يا سيدي !

ودخلنا جميعًا إلى الكهف .. كان كهفًا واسعًا نقي الهواء .. وفيه نبع من الماء الصافي .. وكانت أرضيته رملية ناعمة .

وعندما رآني الكابتن « سموليت » الذي كان راقدًا ، ابتسم لي وقال : تعال يا جيم .. إنك ولد عظيم يا جيم .. ولكني لن أسمح لك بأن تصحبني في رحلة بحرية أخرى !

وبجوار الكابتن « سموليت » كانت هناك أكوام من القطع والعملات الذهبية .. وأكوام مرصوصة من سبائك وقضبان الذهب !

إذن .. هذا هو الكنز الذي جئنا للبحث عنه ! .. هذا هو الكنز الذي مات بسببه سبعة عشر رجلاً من رجال السفينة «هيسبانيولا».. ترى كم من الأرواح قد زهقت حتى تجمّع هذا الكنز لدى القرصان «فلينت»؟ .. وكم من الرجال الشجعان قد سقطوا وهم يدافعون عن ممتلكاتهم ويحاولون إنقاذها من أيدي القراصنة اللصوص ؟ .. وكم من سفن كانت آمنة في البحر أو في المحيط ، وأغرقها القراصنة بعد أن حصلوا على ما فيها من ذهب وكنوز..؟!

• **وفي النهاية**

في صباح اليوم التالي ، بدأنا العمل مبكرين .. فقد كان علينا الكثير من الواجبات حتى نتمكن - ونحن قلة - من نقل هذه الكميات الهائلة من الذهب لمسافة نحو ميل واحد برًّا حتى نضعها في القارب ، ثم نبحر بها إلى مسافة نحو ثلاثة أميال حتى ننقلها فوق ظهر السفينة «هيسبانيولا» الراسية في الخليج الشمالي .

انهمك الرجال في عمليات النقل هذه .. أما أنا فقد كلفوني بالبقاء داخل الكهف لتجميع القطع والعملات الذهبية ووضعها في أكياس وأجولة .. لقد كانت خليطًا من عملات مختلفة الجنسيات : إنجليزية وفرنسية وأسبانية وبرتغالية .. وعلى وجوه تلك العملات ، تظهر وجوه جميع الملوك الذين حكموا الممالك والدول الأوروبية خلال المائة سنة السابقة .. وكانت هناك أيضًا عملات غريبة من دول وممالك الشرق .. وعملات مستديرة الشكل .. وعملات مربعة .. وعملات ذات ثقوب في منتصفها .. أما عدد هذه العملات فهو يماثل عدد أوراق الشجر المتساقطة في الخريف .. لقد شعرت بالألم في ظهري وفي أصابعي من طول ما قمت به من تعبئة تلك العملات في الأكياس والأجولة !

وقبل أن نغادر الجزيرة تشاورنا في أمر القراصنة الثلاثة ، وقررنا أن نتركهم مهجورين في تلك الجزيرة ، وأن نترك لهم بعض البارود وبعض الطعام والملابس .. أما « جون سيلفر » و « بن جن » فقد أخذناهما معنا .

ولأن عدد الرجال على ظهر السفينة كان قليلاً ، فقد كلف كل رجل بالقيام بالعديد من الأعمال ، وكان الكابتن « سموليت » يوجه لنا أوامره وهو راقد على سرير متنقل .

وهكذا أبحرت السفينة « هيسبانيولا » في الاتجاه إلى أقرب ميناء على ساحل أمريكا الجنوبية ، فقد كان من المستحيل أن نستمر في عبور المحيط إلى الوطن دون أن يكون لدينا العدد الكافي من البحارة .

ووصلنا إلى أحد الموانئ الصغيرة ، وذهبت مع الكابتن « سموليت » ومستر « تريلاوني » والدكتور « لايفسي » لاختيار بعض البحارة .. وعندما عدنا قبيل المساء إلى السفينة ، وجدنا « بن جن » جالسًا وحده ، وأخبرنا بأن « جون سيلفر » قد هرب واختفى .. وتبين لنا أنه سرق كيسًا من النقود به نحو ثلاثمائة أو أربعمائة من الجنيهات .. لعلها تساعده في مغامراته المقبلة .. ولقد سعدنا جميعًا لأننا تخلصنا منه مقابل هذا الثمن .

وحين وصلنا إلى الوطن ، لم يكن على ظهر السفينة « هيسبانيولا » إلا خمسة رجال فقط من الرجال الذين غادروا الوطن على ظهرها في رحلة الذهاب إلى جزيرة الكنز ..

وحصل كل منا على نصيبه من الكنز .. حيث استثمره بعضنا بحكمة ، وأنفقه بعضنا بغباء ، كل واحد منا حسب طبيعته .. فقد استقال الكابتن «سموليت» من العمل في البحر وتفرغ لاستثمار نصيبه في بعض المشروعات .. أما « جراي » فقد أصبح كابتن على سفينة رائعة اشترك في ملكيتها .. أما «بن جن» فقد أنفق نصيبه في ثلاثة أسابيع ، ثم بدأ يشحذ طعامه من الطرقات ، إلى أن أنقذه مستر «تريلاوني » وعينه حارسًا على إحدى البوابات، ولم نعد نسمع شيئًا عن أخبار « جون سيلفر » .

أما أنا .. فلم تعد هناك أية قوة تغريني بالذهاب إلى تلك الجزيرة الملعونة مرة أخرى .. وما زلت حتى الآن أحلم أحلامًا مفزعة .. أسمع فيها صخب الأمواج حين تتكسر على شواطئها الصخرية ..!

* * *

ألكسندر دوماس

الكونت دي مونت كريستو

THE COUNT OF MONTE CRISTO

ALEXANDER DUMAS

في اليوم الرابع والعشرين من شهر مايو سنة 1815.. وقبيل هروب «نابليون» من جزيرة « ألبا » عادت السفينة الشراعية الفرنسية « فرعون » من رحلتها التجارية ودخلت إلى ميناء « مارسيليا » .. وكان مالكها السيد «موريل» يقف منتظرًا على الرصيف .. بينما كان الضابط الأول للسفينة ، وهو شاب في نحو العشرين من عمره واسمه « إدموند دانتي » يقوم بواجبه نحو إرساء السفينة بسلام على رصيف الميناء .

قال « دانتي » للسيد « موريل » إن قبطان السفينة السيد « لكليرك » قد مات أثناء الرحلة البحرية ، وأنه تولى قيادة السفينة باعتباره ضابطها الأول ، وأنه حزن على موت هذا القبطان الشجاع الذي تعلم على يديه شئون الملاحة .. فواساه السيد « موريل » بأن قال إن الموت مكتوب علينا جميعًا وأنه نهاية لكل حي .. ثم تساءل عن البضائع التي تحملها السفينة فأجابه « دانتي » بأنها سليمة وستدر على السفينة أموالاً كثيرة .. وأنه من الممكن التأكد من هذه الحسابات لدى « دانجلرز » الذي يتولى الشئون التجارية والأعمال المالية الخاصة بالسفينة .

كان « دانجلرز » هذا شابًا في نحو الخامسة والعشرين ، سيئ السلوك وغير محبوب من جميع الأفراد الذين يعملون على ظهر السفينة .. وبعد أن

عرض على المالك قائمة الحسابات حاول أن يُحدث وقيعة بين المالك والضابط « دانتي » بأن قال إن « دانتي » قد فرض نفسه قائدًا على السفينة بعد موت القبطان « لكليرك » ، وأنه تسبب في تأخير السفينة لمدة يوم ونصف اليوم بالعروج على جزيرة « ألبا » بدلاً من الإبحار مباشرة إلى ميناء «مارسيليا» .. وذلك دون سبب ظاهر ..

قام السيد « موريل » باستدعاء « دانتي » وسأله عن سبب عروجه بالسفينة على جزيرة « ألبا » .. فقال « دانتي » إن ذلك قد تم بناء على طلب من القبطان « لكليرك » قبل أن يموت مباشرة ، حيث أعطاه رسالة مغلقة وطلب منه أن يسلمها إلى « المارشال برتراند » في جزيرة « ألبا » .. وأنه قام بتنفيذ هذا الأمر الأخير للقبطان كواجب لابد أن يؤديه .

وهنا بدأ السيد « موريل » يهتم بالموضوع فسأله بحذر : وهل قابلت «نابليون» هناك ؟ .. فأجاب « دانتي » : نعم قابلته .. وهو في حالة جيدة .. وسألني عن السفينة وما تحمله من بضائع .. وعن موعد وصولنا إلى «مارسيليا» .. وعندما علم أن السفينة مملوكة لشركة « موريل وولده » ، قال إنه يعرف أن عائلة « موريل » تمتلك سفنًا تجارية منذ سنين طويلة .. وأن أحد أفراد هذه العائلة كان جنديًا شجاعًا عمل معه في « فالنسيا » ..

وعندئذٍ قال « موريل » : إنه عمي « بوليكار موريل » الذي ترقى في العسكرية حتى أصبح قائدًا في الجيش ..

وطلب من « دانتي » أن يقوم بإبلاغ عمه بما قاله عنه نابليون .. وأن ذلك لابد أن يتم سرًا .. وأن عليه أيضًا أن يحتفظ بسر الرسالة التي سلمها إلى «المارشال برتراند» وسر مقابلة « نابليون » حتى لا تحدث متاعب وعواقب لا يمكن تداركها .

وفي النهاية قام « موريل » بدعوة « دانتي » لتناول العشاء معه هذه الليلة .. ولكن « دانتي » اعتذر بأنه عليه أن يقوم فورًا بزيارة أبيه العجوز الفقير الذي يستحق منه كل المساعدة والرعاية ، ثم عليه بعد ذلك أن يقوم بزيارة فتاته الجميلة « مرسيدس » ليتفق معها على كيفية إتمام الزواج الذي تعاهدا على عقده فور وصوله .

وأعجب « موريل » بالمشاعر الوفية النبيلة التي يُكنها « دانتي » لكل من أبيه وحبيبته .. وأبلغه بأنه قد عينه قبطانًا على السفينة « فرعون » مكافأة له على حسن عمله .

* * *

ذهب « إدموند دانتي » لزيارة أبيه العجوز .. وساءه أن أباه ما زال يعاني من مشاكل الفقر والمرض .. وأخبره الأب أن جارهم « كاديروس » قد أخذ نصف النقود التي تركها له تسديدًا لدين سابق .. وأنه عاش طوال الأشهر الثلاثة الماضية بنصف النقود الباقية .. وفي الحال أخرج الابن كل ما معه من نقود ووضعها على المائدة .. كانت اثنتي عشرة قطعة ذهبية وست قطعات فضية .

وبينما كان الابن يعطي أباه هذه النقود ، جاء الجار « كاديروس » ليتظاهر بفرحته بعودة « إدموند » من رحلته البحرية ، وليتظاهر أيضًا بتهنئته على رتبة القبطان التي منحت له ، وأخبره بأنه عرف هذه الأخبار السعيدة من صديقه « دانجلرز » .. وعندما علم الأب بأن ابنه أصبح قبطانًا فرح كثيرًا ..

واستأذن الابن للانصراف لأنه يريد زيارة حبيبته « مرسيدس » .. ثم انصرف « كاديروس » بعد ذلك ليتقابل مع صديقه « دانجلرز » الذي كان

ينتظره في حانة « لاريزيرف » .. وتبادل هذان الصديقان حديثًا ينم على مدى كراهيتهمـا « لإدموند دانتي » وحقدهما عليه .. بل وقال «كاديروس» إنه يظن أن «مرسيدس» الجميلة قد صرفت ذهنها عن الزواج من «إدموند» لأنه كان يشاهدها كثيرًا في صحبة شخص اسمه « فرناند » تقول إنه ابن عمها .

* * *

كان « فرناند » هذا يلح على طلب الزواج من « مرسيدس » .. ولكنها كانت ترفضه وتوقفه عند حده في كل مرة .

وفرحت «مرسيدس» فرحة عارمة بلقاء حبيبها «دانتي».. بل وكادت تطير من شدة الفرح حين قرر « دانتي » أن يتم زواجهما في اليوم التالي .. وعندما خرج الحبيبان في نزهة قصـيرة ، شاهدا « فرناند » جالسًا مع «كاديروس» و«دانجلرز» .. فدعاهم « إدموند دانتي » لحضور حفل زواجه، وأبلغهم أنه سيذهب إلى باريس في رحلة سريعة خاطفة لأداء مهمـة كلفـه بها القبطان « لكليرك » قبل وفاته .. وكان « دانجلرز » يعلـم أن هذه المهمة خاصة بتسليم رسالة من « المارشال برتراند » إلى بعض مؤيدي «نابليون» .. وكانت هذه هي الفرصة السانحة أمام « دانجلرز » للقضاء على « دانتي » بكل آماله وأحلامه ..

وقام « دانجلرز » بكتابة بلاغ إلى السلطات بأن « إدموند دانتي » الضابط بالسفينة « فرعون » يحمل رسالة خطيرة أحضرها معه من جزيرة «ألبا» وسيقوم بتسليمها إلى أتباع « نابليون » في باريس .. ولابد من القبض عليه .. وكتب هذا البلاغ بيده اليسرى حتى لا يعرف أحد خطه وأرسل البلاغ خاليًا من التوقيع .

وفي ظهر اليوم التالي أعدت وليمة فاخرة في حانة « لاريزيرف » احتفالاً بزواج «إدموند ومرسيدس».. وأمام جميع المدعوين الذين حضروا الحفل، وصل أحد ضباط الشرطة ومعه أربعة من الجنود .. وتم القبض على «إدموند دانتي» !

* * *

وقف « دانتي » أمام القاضي « فيلفورت » الذي أخذ يوجه إليه كثيرًا من الأسئلة ، وقد تعاطف القاضي معه في بداية الأمر ، خصوصًا عندما علم أن القبض عليه قد تم أثناء حفل زواجه .. وأوشك القاضي أن يأمر بإطلاق سراحه عندما تبين له أن « دانتي » شاب صغير لا يعرف شيئًا من شئون السياسة ، وأنه كان سيقوم فقط بتسليم الرسالة التي يحملها إلى شخص معين في باريس بناء على تعليمات القبطان « لكليرك » .. ولكن عندما قرأ القاضي اسم الشخص المكتوب على تلك الرسالة وهو «نوارتييه» وعنوانه « بطريق هيرون بباريس » .. تغير الموقف تمامًا .. فقد كان « نوارتييه » هذا هو والد القاضي .. وكان من أنصار عودة « نابليون » إلى حكم فرنسا .. وكان معنى ذلك أن القاضي سيفقد منصبه ويتعرض إلى المتاعب لو عرف أمر تلك الرسالة الخطيرة التي يحملها « دانتي » .

وعندما تأكد القاضي « فيلفورت » أن « دانتي » لم يخبر أحدًا بتلك الرسالة ولا باسم المرسل إليه المكتوب عليها .. اطمأن قلبه وتظاهر بتعاطف أكثر مع « دانتي » ، ولكنه طلب منه بخبث ألا يخبر أحدًا غيره بأمر هذه الرسالة ولا يذكر اسم « نوارتييه » إطلاقًا .. وقام القاضي بإحراق الرسالة باعتبارها الدليل الوحيد لإدانته .. فشكره « دانتي » على هذا التعاطف الرحيم ولكن القاضي كان يضمر في نفسه شيئًا آخر ، وقال «لدانتي» إنه كان يود أن

يطلق سراحه فورًا ، ولكنه مضطر إلى الأمر بالتحفظ عليه حتى المساء .. وكرر تحذيره له بألا يبوح لأحد مهما كان بأمر الرسالة ولا باسم « نوارتييه » .

* * *

جلس « دانتي » في حجرة معتمة يعد الدقائق والساعات حتى حل المساء .. وكان يترقب في كل لحظة أن يطلق سراحه ليعود إلى حبيبته بعد انتهاء هذه المشكلة العارضة .. ولكن الوقت أخذ يمر ببطء دون أن تظهر بارقة أمل ..

وقرب منتصف الليل جاء أحد الضباط ومعه أربعة جنود وأخذوه معهم .. وساروا به في عدة شوارع مظلمة إلى أن وصلوا إلى شاطئ البحر ، وأركبوه أحد الزوارق الصغيرة ، واتجهوا به نحو صخور جزيرة قريبة ، يعلوها سجن « شاتوديف » الرهيب .. وهو سجن قديم بني منذ ثلاثمائة سنة، وتروى عنه حكايات تقول إن من يسجن فيه لا يخرج منه حيًا ..

حاول « دانتي » أن يعرف سبب هذه المعاملة بالرغم من أن القاضي «فيلفورت» قد وعده بإطلاق سراحه .. ولكنه لم يحصل على أية إجابة سوى الصمت والجهامة ..

وضعوه في إحدى الغرف وأغلقوا عليه الباب وهو يصيح : أريد أن أقابل المدير .. أريد أن أقابل مدير السجن ! .. ولكن أحدًا لم يهتم بصياحه .. وقضى الليل كله في ظلام دامس .

وفي الصباح جاءه الحارس ببعض الطعام ، ولكن « دانتي » رفض أن يأكل وعاود صياحه بأنه يريد مقابلة مدير السجن .. وأفهمه الحارس أن هذا الطلب يعتبر من المستحيلات .. وأنه إذا أصر على هذا الطلب فسوف يصاب بالجنون في أقل من شهر !

وقال الحارس أيضًا إن السجين الذي كان يشغل هـذه الغـرفة قبـله قد أصيب بالجنون منذ سنتين .. وكان يريد أيضًا مقابلة مدير السجن ليعطيه كنزًا هائلاً مقابل إطلاق سراحه .. ولكن المدير أمر بنقل هذا السجين إلى غرفة تحت الأرض مخصصة لسجن المجانين .

وحاول « دانتي » أن يعتدي على هذا الحارس الذي يمنعه من مقابلة المدير .. فتملص منه الحارس ووعده بأنه سيذهب إلى مدير السجن ليعرض عليه هذا الطلب .. وغاب الحارس بعض الوقت ثم عاد ومعه بعض الجنود الذين تكالبوا على « دانتي » وأخذوه إلى غرفة أخرى .. تحت الأرض !

* * *

ومرت الأيام والأسابيع والشهور و« دانتي » ما زال سجينًا في قسم المجانين الخطرين .. وفقـد كل أمل في العودة إلى الحـرية مرة أخرى .. ولكن في يوم ما جاء أحد كبار الضباط من قبل الحكومة ليقوم بالتفتيش على السجون وليعرف أحوال السجناء .. وعندما زار غرفة « دانتي » الذي أصبح يعرف الآن بالسجين « رقم 34 » .. سأله الضابط الكبير عن السبب في وضعه بالسجن ، فقال « دانتي » إنه لا يعرف لذلك سببًا .. ولا يعرف ما الجـريمـة التي ارتكبهـا إذا كانت هناك جريمـة بالمرة .. بل قال للضابط الكبير إن القاضي « فيلفورت » قد وعد بإطلاق سراحه وكان رحيمًا به عندما نظر في أمره .. فوعده الضابط بأنه سيبحث هذا الموضوع بنفسه .

وقال مأمور السجن للضابط الكبير إن السجين « رقم 34 » مجنون خطر وإنه حاول أن يقتل الحارس « أنطوان » بعد وصوله إلى السجن بوقت قليل .. ثم أطلع الضابط الكبير على التقرير الذي كتبه القاضي «فيلفورت» حيث

ذكر فيه « أن إدموند دانتي رجل خطير ساعد في محاولة عودة نابليون من جزيرة ألبا .. ويجب وضعه تحت حراسة مشددة » .

وقام الضابط الكبير أيضًا بزيارة غرفة السجين « رقم 27 » المدعو «فاريا» .. وقال عنه مدير السجن إنه مجنون آخر .. وكان زعيمًا لأحد الأحزاب الإيطالية .. وإنه مسجون منذ سنة 1811 وفقد عقله بعد سنتين من دخوله السجن ، ويقول إن لديه كنزًا يمكن أن يعطيه لمن يطلق سراحه.

* * *

ومرت شهور وشهور .. وفقد « دانتي » كل أمل في انتهاء هذه المعاناة والخروج مرة أخرى إلى عالم الحرية .. ولم يعد باقيًا في حياته سوى الصمت وطول الانتظار ..

ولكن الصمت تبدد فجأة ذات يوم ، وتخيل « دانتي » أنه يسمع دقًا متواصلاً يأتي من تحت الأرض .. ثم أصبح تخيله هذا حقيقة واقعة حين استمر الدق ساعات وساعات .. ثم توقف الدق عندما اقترب موعد قيام حراس السجن بإحضار الطعام للسجناء .. لذلك فقد تأكد « دانتي » من أن الدق الذي يسمعه نتيجة لحفر في الحائط .. وربما يكون هناك سجين يحفر لنفسه نفقًا لمحاولة الهرب من هذا السجن .. وهكذا تولد في نفس «دانتي» أمل جديد .. ويبدأ هو الآخر يحفر في الأرض في اتجاه مصدر الصوت .

وفجأة .. انهار جزء من أرضية الغرفة ، وظهرت فتحة صغيرة تطل على النفق الذي كان يحفره السجين الآخر .. وسمع « دانتي » صوتًا يناديه: من أنت ..؟!

كانت فرحة عارمة حين سمع « دانتي » هذا الصوت الإنساني .. وتبادل مع السجين المجهول بعض الكلمات للتعارف .. وتواعد السجينان على مواصلة الحفر واللقاء في اليوم التالي .

كان السجين الآخر هو « فاريا » المعروف بالسجين « رقم 27 » .. وهو عالم من نبلاء إيطاليا .. وكانت تهمته هي أنه شارك في العمل على توحيد إيطاليا التي كانت مقسمة في ذلك الوقت إلى إمارات متفرقة .. وقد دخل سجن « شاتوديف » منذ سنة 1811 .. وبطبيعة الحال ، سرعان ما توطدت الصداقة بين السجينين.. وبالنظر إلى أن « فاريا » كان أكبر سنًا، فقد اعتبر «دانتي» بمثابة ابن له ، وقامت العلاقة بين الاثنين على هذا الأساس .

وبمرور الوقت تبين لهما أن عمليات الحفر السابقة كانت لا تؤدي إلى خارج السجن ، وأن عليهما أن يضعا خطة جديدة لحفر نفق جديد تجاه البحر .. وكان ذلك بالطبع يستغرق فترة طويلة قد تمتد إلى عدة شهور .. ولذلك فقد أصبحا يلتقيان كل يوم ليواصلا الحفر .. كما قام « فاريا » بتعليم «دانتي» علومًا كثيرة .. فقد أعطاه دروسًا في تاريخ العالم ودروسًا في اللغة الإنجليزية وغير ذلك من العلوم الأخرى .

ولكن « فاريا » كان مريضًا بالصرع .. وتصيبه نوبات قاسية يكاد يفقد فيها حياته .. وكان « دانتي » يعالجه ويظل بجانبه حتى يفيق وتنتهي النوبة .

* * *

وفي لحظة من لحظات التعاطف الإنساني ، قال « فاريا » « لدانتي » : أنت ابني يا « إدموند » .. أنت ولدي الذي وهبني به الله لتكون فرحة لقلبي ورحمة بحالي وأنا أعاني المرض في هذا السجن اللعين .. ولذلك فسوف أبوح لك بأغلى سر أحتفظ به لنفسي ..

وبدأ «فاريا» يبوح بسر الكنز .. فقال إنه كان صديقًا حميمًا للأمير الإيطالي «سبادا» الذي كان سليل أسرة « سبادا » التي كانت تعتبر من أغنى العائلات الإيطالية في القرن الخامس عشر .. وفي ذلك العصر كان «سيزار بورجيا» حاكم روما في حاجة ماسة إلى المال ، فقام بإخفاء كنوزه وأمواله في جزيرة «مونت كريستو» (تحت الصخرة الثانية والعشرين من شاطئ الخليج الشرقي، حيث توجد بعض الدرجات التي تؤدي إلى الحجرة تحت الأرض).

وقال «فاريا» إنه عرف هذا السر بعد موت صديقه الأمير « سبادا » الذي كان قد أهدى إليه بعض الكتب القديمة التي كانت تتوارثها عائلته.. وقد عثر على هذا السر بطريق المصادفة ، حيث كانت هذه المعلومات مكتوبة بحبر سري تظهر الكتابة به إذا تعرضت لحرارة النار .. وقد تصادف أن تعرضت الورقة التي تحتوي على هذه المعلومات للنار بطريق الخطأ ، فظهرت الكتابة المكتوبة عليها .

وقال «فاريا» أيضًا إنه كان ينوي الذهاب إلى جزيرة «مونت كريستو» للحصول على هذا الكنز ، لولا أن الحكومة قبضت عليه بسبب نشاطه السياسي وأودعته في هذا السجن الرهيب .

وفي النهاية قال «فاريا» إنهما إذا نجحا في الهرب من هذا السجن اللعين، فسوف يذهبان معًا إلى «مونت كريستو» ويقتسمان هذا الكنز معًا.

* * *

وذات يوم.. تبدد أمل السجينين « فاريا » و«دانتي» في الهروب من سجن « شاتوديف » .. وتحطمت خطتهما وأصبحت هباءً منثورًا .. فقد جاء بعض العمال الذين كانوا يجرون بعض التجديدات في جدران السجن، وردموا كل

الحفر والفجوات بها في ذلك النفق المحفور تحت الأرض .. وضاعت كل الجهود التي بذلها السجينان سدى .

كانت الصدمة شديدة على قلب « فاريا » فلم يحتملها ، وعندما جاءته نوبة المرض تخشّب جسده وتوقف قلبه وأسلم الروح .. وحزن عليه «دانتي» حزنًا شديدًا ..

وعندما جاء الحراس وتيقنوا من موت « فاريا » استدعوا مدير السجن الذي أمرهم بأن يلفوا الجثة في كيس من القماش ، ويقذفوا بها إلى البحر عند منتصف الليل .

ومن خلال النفق الموصل بين غرفة « فاريا » وغرفة « دانتي » سمع كل الأوامر والتعليمات التي أصدرها المدير للحراس ..

وبالرغم من كل الأحزان التي عصفت بقلبه على هذا المصير التعس الذي سيلقاه صديقه ، لاحت في ذهن « دانتي » فكرة غريبة .. برقت واختفت فجأة ، تمامًا مثلما يبرق البرق في السماء في ليلة عاصفة .. فما دام الأموات فقط هم المسموح لهم بمغادرة السجن، فليحل هو محل صديقه الميت .. وقد كان!

حمل « دانتي » جثة صديقه « فاريا » وعبر بها الممر السري الذي يصل بين غرفتيهما، وأرقد الجثة على سريره وغطاها بالملاءة، لكي تبدو كما لو كان هو النائم على السرير .. ثم عاد إلى غرفة « فاريا » وأدخل نفسه داخل الكفن المصنوع من القماش على شكل كيس .. وأغلق الكيس على نفسه من الداخل .. وظل ينتظر موعد الدفن بالإلقاء في البحر .

وقرب منتصف الليل ، وصل ثلاثة من الحراس ومعهم النقالة التي سيحملون عليها الجثة ، وكان أحد هؤلاء الحراس يحمل مصباحًا ..

ووضعوا « دانتي » فوق النقالة .. وسارت « الجنازة » حتى وصلوا إلى حافة أعلى صخرة بالجزيرة ، وعندئذ أمسكوه من رأسه وقدميه .. و«هوب!» قذفوا به إلى البحر في دفعة واحدة .

طار « دانتي » في الهواء .. ثم ارتطم بقمم الأمواج العالية .. وبدأ يغوص في قاع البحر .. وعندئذ بدأ يمزق كيس القماش حتى تحرر منه ثم بدأ يسبح تحت الماء مبتعدًا عن « شاتوديف » .

كان البحر هائجًا .. وكانت الرياح تهب في عنف عاصف .. ومع ذلك فقد واصل « دانتي » السباحة ليصل إلى جزيرة « تبولين » وهي أقرب جزيرة غير مأهولة بالسكان .. وهناك احتمي تحت صخرة بارزة ، ليتقي عنف الريح وشدة هطول المطر .. ثم تذكر فجأة أنه في حاجة إلى الطعام وبعض الماء ليشرب ، فجمع في كفيه قطرات من المطر أخذ يصبها في فمه كلما تجمعت منها كمية مناسبة .

* * *

وبدأ القلق يساوره .. فمما لا شك فيه أنهم سيكتشفون الحيلة التي دبرها للهرب من السجن .. وسيخرجون بالقوارب للبحث عنه في كل الجزر المجاورة .. وهو لا يستطيع الذهاب إلى « مارسيليا » .. ولا يستطيع أيضًا البقاء في تلك الجزيرة المنعزلة .. وبالرغم من صخب الأمواج حين تتكسر على حواف الصخور ، فقد سمع صوت ارتطام شديد بالصخور القريبة منه .. أعقبه صراخ مرتفع سرعان ما تلاشى في صوت تلاطم الأمواج بصخور الشاطئ .

كان الظلام دامسًا فلم يستطع أن يرى شيئًا مما حدث .. ولكنه أدرك بخبرته كبحار أن الأمواج العنيفة قذفت بأحد القوارب على الصخور المدببة .. وفي مثل هذه الأحوال سيتحطم القارب إربًا ولن ينجو من ركابه أحد ..

وعندما لاحت في الأفق الشرقي تباشير نور الصباح ، تحقق كل ما توقعه « دانتي » فقد رأى بعض القطع الخشبية من حطام القارب طافية فوق قمم الموج ، كما رأى قبعة حمراء من قبعات البحارة ملقاة على إحدى صخور الشاطئ .. ولكنه لم ير للبحارة أثرًا ، فقد غرقوا جميعًا كما توقع .

وعند خط الأفق ، شاهد أشرعة سفينة صغيرة الحجم ، تبدو كما لو كانت قد غادرت ميناء « مارسيليا » متجهة إلى عرض البحر .. وفي الحال وضع القبعة الحمراء على رأسه .. وسبح في الماء في اتجاه يعترض خط سير السفينة .. وكانت العاصفة قد هدأت حين اقتربت السفينة ، فأخذ يصيح بأعلى صوته طالبًا المساعدة .. فأنزلت السفينة قاربًا ، والتقطته من الماء ..

* * *

اختلق « دانتي » قصة خيالية ليبرر بها السبب في وجوده بتلك المنطقة .. قال إنه بحار من جزيرة مالطة .. وكان يعمل على سفينة غرقت في تلك المنطقة .. وكان هو الوحيد الذي نجا من البحارة ..

في البداية لم يصدقه قبطان السفينة وبحارتها وشكوا في أمره .. ولكنه أبدى لهم خبرته الكبيرة في الإبحار بين الجزر المتناثرة بين شواطئ إيطاليا وفرنسا .. وبذلك فقد أصبح مفيدًا لهم ، وقَبِلَ قبطان السفينة أن يعمل معه كأحد البحارة .

كان اسم السفينة هو « إميليا الصغيرة » .. وتبين « لدانتي » أنها تعمل في «التجارة الحرة» وتهريب البضائع دون المرور على سلطات الجمارك .. وكانت السفينة متجهة إلى ميناء « ليجهورن » لتقوم بإحدى عملياتها ..

وكان «دانتي» دائم التفكير في أبيه.. وفي حبيبته «مرسيدس».. فهل ما زال أبوه حيًا حتى الآن .. وهل ما زالت «مرسيدس» باقية على حبه؟!.. وهل .. وهل؟! .. أسئلة كثيرة كانت تدور في ذهنه لم يستطع أن يجد لها جوابًا شافيًا.

وفي إحدى الرحلات ، مرت السفينة « إميليا الصغيرة » بجوار جزيرة «مونت كريستو» .. فتذكر سر الكنز الذي باح به صديقه « فاريا » قبل وفاته .. وهل سيقدر له أن يذهب إلى تلك الجزيرة المهجورة ليحصل على الكنز ويصبح من الأثرياء ؟!.. وتاه « دانتي » في فيض من الأحلام الوردية الجميلة..!

وشاء الحظ الحسن أن تقتضي إحدى عمليات السفينة « إميليا الصغيرة» اللقاء مع سفينة تركية تحمل شحنة من الحرير .. وتم الاتفاق على أن تقوم السفينة التركية بتسليم الحرير في مكان آمن بعيدًا عن عيون ومراقبة رجال الجمارك .. وكان هذا المكان هو خليج صغير بجزيرة «مونت كريستو» .

وتم اللقاء بين السفينتين في هذا الخليج .. وتمت عملية تسليم وتسلم البضاعة دون أن تكتشف .. وغادرت السفينة التركية جزيرة « مونت كريستو »، بينما ظلت السفينة « إميليا الصغيرة » باقية بالجزيرة لكي يستريح بحارتها بعض الوقت .. وانتهز « دانتي » هذه الفرصة التي هيأها له القدر ، وأخذ يتجول في أرجاء الجزيرة الصغيرة حتى وصل إلى منطقة الخليج الشرقي ، حيث توجد العلامات الصخرية التي وضعها الأمير « سبادا »

حين قام بإخفاء أمواله ومجوهراته في غرفة تحت الأرض ، عند الصخرة الثانية والعشرين ..

ولحسن الحظ أيضًا عثر « دانتي » على تلك العلامات ، ولكنه لم يجسر على القيام بأية خطوة أخرى للوصول إلى الكنز ، وفضّل أن يقوم بتلك العملية وحده بعد أن ترحل السفينة « إميليا الصغيرة » .. ولكن المشكلة هي : كيف يجد حجة يبرر بها رغبته في التخلف عن الإبحار مع السفينة والبقاء وحده في جزيرة « مونت كريستو » ليبحث في هدوء عن الكنز المرموق ..؟!

وبرقت في ذهنه خطة نفذها على الفور .. فقد أخذ يجري فوق صخور الجزيرة إلى أن اقترب من المكان الذي كان البحارة يستريحون فيه .. وعندئذ قفز قفزة هائلة وأسقط نفسه على الأرض وأخذ يصيح ويصرخ من شدة الألم .. وعندما حاول القبطان والبحارة أن يساعدوه في النهوض ، كان صراخه يشتد ويشتد.. وادعى أنه قد أصيب بكسر في العظام ولا يستطيع أن يتحرك قيد أنملة .. وطلب من البحارة أن يتركوا له بعض الطعام وأن يرحلوا على الفور للقيام بمهمتهم ثم يرجعوا إليه في طريق العودة ، لعله يتحسن خلال تلك الفترة .. وهكذا رحلت « إميليا الصغيرة » .. وتركت «دانتي» وحده في جزيرة « مونت كريستو » مع الأمل في الحصول على الكنز المجهول..!

* * *

وما إنْ اختفت السفينة وراء الأفق ، حتى نهض « دانتي » من رقدته المدَّعاة واتجه فورًا إلى الخليج الشرقي .. ولم يكن من الصعب الوصول إلى المكان المحدد لوجود الكنز .. فهو يحفظ عن ظهر قلب الكلمات التي ذكرها له صديقه الراحل « فاريا » ..

عثر « دانتي » على صندوق كبير من الخشب القديم ، عليه علامة فضية تحمل شعار أسرة الأمير «سبادا».. وعندما تمكن من فتح الصندوق، وجده مملوءًا عن آخره بعملات فضية وذهبية من بلدان وعصور مختلفة .. وسبائك من الذهب الخالص .. وكمية هائلة من فصوص الماس والأحجار الكريمة .. كان كنزًا هائلاً لا يقدر بثمن ..!

كان من المستحيل أن يحمل الصندوق معه حين تعود إليه السفينة «إميليا الصغيرة» .. ولذلك فقد اكتفى ببعض قطع الماس الصغيرة ، وضعها في جيبه..

وحين عادت السفينة ، ادعى أن ساقه ما زالت تؤلمه ، ولكنه أصبح قادرًا على المشي.. ورحلت السفينة عائدة إلى ميناء « ليجهورن » وهناك باع «دانتي» أربع قطع من الماس .. وأخبر قبطان السفينة وأصدقاءه من البحارة أنه ورث عن عمه ثروة طائلة . وأعطى لكل واحد منهم هدية قيمة .. وأعفى نفسه من العمل في السفينة ..

* * *

وغادر « دانتي » ميناء « ليجهورن » وسافر إلى ميناء « جنوا » .. وهناك وجد يختًا صغيرًا جديدًا كان قد بناه أحد صناع السفن لواحد من الإنجليز الأثرياء .. فعرض على صانع السفن أن يبيعه هذا اليخت الجميل مقابل مبلغ كبير من المال ، على أن يقوم ببناء يخت آخر للإنجليزي الثري .. واستوفى «دانتي» جميع الأوراق الرسمية الخاصة باليخت .. وأطلق على نفسه اسمًا آخر هو « الكونت دي مونت كريستو » .



وبطبيعة الحال، فقد أبحر « دانتي » بيخته الجديد إلى جزيرة «مونت كريستو» حيث نقل الكنز كله وأخفاه في مكان سري داخل غرفة النوم باليخت .. وشد الرحال فورًا إلى « مارسيليا » .. وهو يفكر في أبيه .. وفي حبيبته «مرسيدس» .. وفي أصدقائه ومعارفه القدامي ..

وعندما وصل إلى ميناء « مارسيليا » أرسى يخته على نفس الرصيف الذي رحل منه حين وضعه الجنود في القارب، وذهبوا به إلى سجن «شاتوديف» .. وأخذ قلبه ينبض بقوة حين جاء بعض الرجال الرسميين بالميناء وفحصوا أوراقه ووجدوها سليمة تمامًا .. وأبدوا ترحيبهم بزيارة «الكونت دي مونت كريستو» لمدينتهم.

سار « دانتي » بخطوات سريعة متلهفة في تلك الشوارع التي عاش فيها ذكرياته القديمة، إلى أن وصل إلى البيت المتواضع الذي يعيش فيه أبوه..

وكان الأب في تلك اللحظات يعاني سكرات الموت في لحظاته الأخيرة .. وكانت « مرسيدس » بجواره تحاول التهوين عليه وتلبي آخر طلباته .. لقد كانت تلك الفتاة النبيلة تقوم بواجبها اليومي في رعاية هذا الأب المسكين منذ أن أخذوا ابنه وحبيبها « إدموند » إلى سجن «شاتوديف».

ولحسن الحظ مات الأب المسكين بعد أن رأى ابنه مرة أخرى قبل أن يخمد آخر أنفاسه ..

وكانت فرحة « مرسيدس » بعودة حبيبها عارمة تجلُّ عن الوصف.. وعلم « إدموند » منها أن « دانجلرز » قد غادر فرنسا بعد عودة « نابليون » إلى الحكم عام 1815 .. وأن « فرناند » قد قتل أثناء اشتراكه في موقعة

«واترلو» .. أما « كاديروس » فما زال يعيش في « مارسيليا » حتى الآن ، ولكنه يعيش حياة بائسة لا يجد فيها قوت يومه ..

وقبل غروب الشمس في هذا اليوم السعيد .. انطلق اليخت فوق صفحة الماء في اتجاه البحر العريض المفتوح .. وعلى ظهره حبيبان امتلأ قلب كل منهما بالشوق والحنين .. وترفرف فوقه وداخله ، سعادة لا حدَّ لها .. !

* * *

حكاية من مصر القديمة

الملّاح وجزيرة العجائب ..!

THE STORY OF THE SHIPWRECKED SAILOR.
RETOLD BY: ROGER LANCELYN GREEN.

في عهد الملك أَمْنِمْحَعْتْ الذي كان يحكم مصر من حوالي عام 2000 قبل الميلاد ، حلَّ بالبلاد رخاء لم تشهده من قبل ، ورفرف على ربوعها السلام والأمن والاستقرار ، بعد فترة من اضطرابات وحروب أهلية استمرت نحو مائتي عام .

في عهد ذلك الرخاء الخصيب العظيم .. ظهرت فئة من المصريين الشجعان ، بعضهم من عشاق المغامرات الاستكشافية واقتحام المجهول ، وبعضهم من التجار الشطار الذين ذهبوا إلى شعوب العالم القديم ، يصدِّرون إليهم منتجات مصر ، ويستوردون منهم ما تحتاجه البلاد ..

كانت أغلبية تلك الرحلات البعيدة تتجه صوب الجنوب ، إما صعودًا مع النيل للوصول إلى النوبة العليا وإلى أثيوبيا ، أو إبحارًا في البحر الأحمر والمحيط الهندي للوصول إلى بلاد بونت .. وهكذا راجت في مصر أسواق العطور والبخور والجواهر والأحجار الكريمة وغير ذلك من الأشياء الثمينة.

وكان البلاط الملكي ، سواء في مدينة طيبة أو في مدينة منف ، يعج بالعديد من الضباط البحريين وقباطنة السفن ، ورؤساء البعثات الاستكشافية .

وبطبيعة الحال فقد كان لدى كل منهم حكاية أو حكايات عن مغامراته وعما صادفه فيها من عجائب وأهوال .. وكان كل واحد من هؤلاء يتمنى أن

تصل حكايته إلى أسماع الفرعون العظيم وتشفع له عند جلالته ، فيأمر بتعيينه قائدًا أو رئيسًا لبعثة كشفية أو تجارية يجوب فيها البحار ليحضر إلى مصر مزيدًا من الخيرات .

وفي أحد الأيام ، كان الوزير الأكبر يعبر الحوش الواسع الملحق بالقصر الملكي ، حيث استوقفه أحد هؤلاء المغامرين الشجعان الذين لديهم حكايات يريدون أن يرووها للملك ، ويصفون فيها مغامراتهم الجريئة وما شاهدوه من عجائب الأخبار وغرائب الناس ..

قال البحار مخاطبًا الوزير الأكبر :

سيدي الوزير .. اسمعني أنصت إلى لحظة .. معي هدايا ثمينة أريد أن أقدمها إلى الفرعون .. له الحياة والصحة والقوة .. هدايا ثمينة إذا شاهدتها يا سيدي الوزير أنت وجميع المستشارين فلن تنسوا منظرها أبدًا .. أنصت إلى .. أريد أن أحكي للفرعون عن مغامرات لم يحكها أحد من قبل .. أنا على يقين من أن فرعون له الحياة والصحة والقوة .. سوف يمنحك كثيرًا من العطايا لأنك أحضرت إلى حضرته رجلاً مثلي يستطيع أن يحكي هذه المغامرات .. لقد شاءت الظروف أن أصل إلى جزيرة موغلة في جنوب البحار .. أبعد كثيرًا من بلاد النوبة ومن جنوب بلاد أثيوبيا .. أرجوك يا سيدي أن تخبر الفرعون بأني هنا .. وأريد أن أقص حكايتي على مسامع جلالته ..

كان الوزير الأكبر قد اعتاد على سماع مثل هذا الطلب من مغامرين كثيرين .. لذلك فقد نظر بشك إلى محدِّثه وقال :

– أنصت لي ، يبدو لي أن كلامك هراء .. وأن لديك حكاية فارغة عقيمة تريد أن تقولها .. اسمع .. لقد حكى لنا كثيرون من أمثالك المغامرين ..

كانوا يعتقدون بأن مغامراتهم مبهرة.. وأن رحلاتهم عجيبة.. ولكنهم بعد أن حكوا هذه الحكايات والمغامرات .. لم يفوزوا بأي تكليف ملكي من الفرعون بأن يقودوا أية بعـثات تجارية أو استكشافية .. بل لقد ندموا على ما قالوه .. وأدانوا أنفسهم بأنفسهم .. فإذا كنت واحدًا من مثل هؤلاء .. وكانت حكايتك فارغة تافهة فسوف أقذف بك خارج القصر الملكي.. أما إذا كانت حكايتك تستحق الإنصات .. فربما أقدمك إلى حضرة الفرعون .. هيا احكها لي وأنت وحظك.. وإلا فعليك أن تلزم الصمت ولا تضايقني مرة أخرى .

فقال البحار بثقة :

– سأحكي لك حكايتي كلها .. وعندما تسمعها إلى نهايتها ، ستطلب مني على الفور أن أذهب معك إلى الفرعون لأقصَّها على أسماعه .. والآن فلتسمع يا سيدي ..

* * *

كانت السفينة التي أعمل عليها في طريقها إلى مناجم الفرعون .. كانت سفينة عظيمة لها مائة وخمسون مجدافًا ، ويعمل عليها رجال ذوو خبرة بالسماء والماء والأرض ، ولهم قلوب أقوى من قلوب الأسود .. وظلت السفينة مبحرة لأيام عديدة حتى خرجت من جنوب البحر الأحمر إلى المحيط العظيم .

كان قبطان السفينة وبحارتها يعرفون جيدًا أحوال الجو وأحوال الرياح .. وقالوا إن الرياح ستدفعنا بلطف عبر طريقنا المرسوم .. ولكن هبَّت علينا

فجأة رياح عاتية لعبت بالسفينة فوق سطح الماء ، وأخذت تدفعها دفعًا نحو أرض مجهولة .. وكان ارتفاع الموج أكثر من ثمانية أذرع .. واقتربت السفينة من الساحل كما لو كانت هناك قوة تجذبها .. ثم ارتطمت بصخور الشاطئ ذات الحواف المدببة ، وتحطمت السفينة وتناثرت أجزاؤها واختفى كل الرجال الذين كانوا يعملون عليها .

ولحسن حظي .. تعلقت بلوح من الخشب طفا بي فوق سطح الأمواج الصاخبة ثم ارتطم بصخور الشاطئ فقذف بي بقوة أسقطتني فوق رمال ناعمة .. وأخذت أزحف حتى أجد لنفسي ملجأ أهرب فيه من غضب البحر الثائر .

وعندما لاح نور صباح اليوم التالي، بدأت أتعرف على المكان الذي ألقتني المقادير إليه .. رأيت نفسي وحدي في جزيرة صغيرة ليس فيها إنسان غيري .. جزيرة عجيبة لا يحلم أحد بأن يرى مثلها في الدنيا!

وصنعت لنفسي مأوى يحميني من حرارة الشمس الحارقة .. وعندما قرصني الجوع ذهبت لأبحث عن طعام يشبعني .. فإذا بي أجد طعامًا شهيًا لا أول له ولا آخر .. من التين والأعناب وكل أنواع المحاصيل الزراعية من الحبوب إلى التوت .. بالإضافة إلى أنواع لا تحصي من الأسماك والطيور التي يمكن جمعها واصطيادها بأسهل الطرق .

في البداية ظللت مكتفيًا بتناول طعامي من الحبوب والفواكه والثمار ، ولكن في اليوم الثالث حفرت حفرة في الأرض ، وأشعلت نارًا طهوت عليها وجبة ساخنة من اللحم والسمك .

وبعد أن تناولت هذه الوجبة الفاخرة من الطعام ، جلست مستريحًا في ظل شجرة .. وفجأة سمعت صوتًا هائلاً كالرعد .. وكان الصوت قريبًا مني فامتلأ قلبي بالخوف والرعب .

توقعت أن موجة هائلة قادمة من البحر تزحف هادرة نحو الجزيرة لتبتلعها بكل ما عليها .. بعد أن رأيت قمم الأشجار تتخابط في بعضها ، وشعرت بأن الأرض تهتز تحت قدمي .. لذلك فقد انبطحت على وجهي وانتظرت وقوع الكارثة .

ومرَّ وقت دون أن يحدث شيء ، فرفعت رأسي لأتبين الأمر .. ورأت عيني ما لا عين رأت من قبل.. ولن أنسى ما حييت قدر الرعب الذي انتابني في تلك اللحظة .. لقد رأيت ثعبانًا ضخمًا يبلغ طوله أكثر من ثلاثين ذراعًا .. وله ذقن من الشعر طولها أكثر من ذراعين .. وكان جسمه كله مغطى بالحراشف والقشور .. وحول عينيه حراشف صدفية تبرق بلون أزرق كاللازورد .

ظللت منبطحًا على الأرض وأنا أرى الثعبان الضخم وقد كوّر جسمه أمامي وأخذ يهز رأسه فوق رأسي .. وكدت أموت من الرعب عندما سمعت صوت هذا الثعبان يكلمني :

« ماذا أتى بك إلى هنا أيها المخلوق الصغير ؟ .. وكيف جئت ؟ .. وماذا تريد من جزيرتي .. إذا لم تخبرني بصدق فسوف تعرف معنى النار الحارقة التي تحرق الشيء فلا تبقي له أثرًا .. تكلم بسرعة وأخبرني عن هذا الحدث الذي لم أسمع به من قبل » ..



وقبل أن أنطق بكلمة حملني الثعبان بين فكيه .. وزحف بي حتى وصل إلى كهفه .. وهناك وضعني على الأرض .. وبالرغم من أن أسنانه وأنيابه كانت طويلة وحادة ، إلا أنه لم يصبني بأي أذى .. وعاود الثعبان تساؤله :

« والآن أخبرني أيها المخلوق الصغير : ماذا أتى بك إلى هنا .. إلى جزيرتي في وسط المحيط ، والتي تحميها الأمواج العاتية من كل جانب ..؟!» .

وجمعت شتات نفسي وبدأت أتكلم بعد أن وقفت أمام الثعبان في خشوع وأحنيت رأسي نحو الأرض كما لو كنت واقفًا أمام الفرعون ، وقلت :

لقد كنت في مهمة بناء على أمر من أمنمحت فرعون مصر .. وكنت راكبًا على ظهر سفينة طولها مائة وخمسون ذراعًا .. وكانت السفينة مبحرة تجاه مناجم الجنوب لإحضار المعادن الثمينة والأحجار الكريمة .. ولكن عاصفة قوية أطاحت بالسفينة ومزقتها إربًا على صخور الشاطئ، ولم ينج من رجال السفينة أحد سواي .. فقد تعلقت بلوح من الخشب إلى أن حملتني إلى هنا موجة هادئة لطيفة من أمواج البحر ..

عندئذ اطمأن الثعبان إلى قولي : وقال بصوت هادئ :

لا تخف أيها المخلوق الصغير وليطمئن قلبك .. وابعد عن وجهك مسحة الحزن هذه .. إن نجاتك وحدك وموت جميع زملائك وحضورك إلى هذه الجزيرة كل ذلك كان بمشيئة الآلهة .. وأنا على يقين بأن الإله آمون- رع هو الذي قرر حضورك إلى هذه الجزيرة المباركة التي لا ينقصها شيء .. والمملوءة بخيرات وأشياء طيبة لا حصر لها .. والآن .. دعني أخبرك بمستقبلك .. سوف تظل بهذه الجزيرة شهرًا وراء شهر إلى أن تكتمل شهور أربعة ..

وعندئذٍ سوف تصل إلى هنا سفينة مصرية .. ستعود بك سالمًا إلى وطنك .. وعندما يحين أجلك .. ستموت في مدينتك .. وستستريح وترقد في سلام داخل القبر الذي أعددته لنفسك ..!

والآن دعني أحدثك عن هذه الجزيرة .. فمن الطيب أن تسمع كلامًا عجيبًا بعد أن زال خوفك الذي كاد يخلع قلبك .. وسوف تكون لديك حكايات عجيبة تحكيها عندما تعود إلى وطنك وتركع أمام الملك الذي سينصت إلى حكاياتك ويتعجب ..

إني أعيش هنا مع إخوتي وأخواتي وأبنائي وبناتي من الثعابين والحيَّات صغارًا وكبارًا .. وعددنا خمسة وسبعون ثعبانًا وحية .. ولم يصل إلى جزيرتنا أحد من البشر قبلك سوى فتاة جميلة كان منظرها غريبًا .. ولكن سقطت عليها صاعقة من نار السماء أحرقتها في لحظة وحولتها إلى رماد تطاير .. أما أنت فلا أعتقد أن السماء يمكن أن ترسل صواعقها لتحرق رجلاً مثلك عاش وسط المخاطر ..

اصبر على الحياة معنا في هذه الجزيرة المباركة حتى تنقضي الشهور الأربعة .. وستعود إلى بيتك لتحيط بذراعيك زوجتك وأبناءك ..!

وعندئذ انحنيت أمام هذا الثعبان العظيم وشكرته على كلماته الطيبة التي أراحت قلبي .. وقلت له بصدق :

كل ما أخبرتك به صادق وحقيقي .. وإذا كان ما أخبرتني به سيحدث حقيقة .. فعندما أمثل أمام الفرعون سأخبره بكل شيء عن عظمتك وجلالك .. وسوف أعود إليك لأقدم القرابين .. سأقدم إليك الزيت المقدس والعطور والبخور ذا الرائحة الطيبة ، والذي يحرق داخل معابد

الآلهة .. وسوف أخبر الفرعون أيضًا بكل ما تحفل به هذه الجزيرة من خيرات ونعم .. وسوف يرسل إليك الفرعون سفينة محملة بالخيرات المصرية هدية إلى جلالتك !

وهنا ضحك الملك الثعبان من كلامي وقال :

حقًّا أنك لا تعرف قدر ما أملكه من عطور وبخور في هذه الجزيرة .. إن لديَّ منها أكثر مما في بلاد بونت كلها .. الشيء الذي ينقصنا فقط هو الزيت المقدس الذي وعدت بإحضاره .. ومع ذلك فلن تستطيع أن تحضره إلى هنا أبدًا .. فبعد رحيلك مباشرة ، سوف تختفي هذه الجزيرة ولن تراها بعد ذلك مرة ثانية .. إلى أن تظهرها الآلهة لشخص سعيد آخر .

وهكذا عشت منعمًا بخيرات تلك الجزيرة إلى أن انقضت الشهور الأربعة في زمن لم أشعر بمروره .. وعندئذ لمحت عن بعد سفينة قادمة من البحر نحو الشاطئ ، تحملها أمواج هادئة وتدفعها رياح في غاية اللطف .. فصعدت على الفور إلى أعلى شجرة لأتبين ملامح من عليها من رجال ، وظهر لي بوضوح أنهم رجال من مصر .

كاد قلبي يطير من صدري من شدة الفرح .. وانطلقت بأقصى سرعة إلى الكهف الذي يعيش فيه الملك الثعبان لأخبره بالأمر .. ولكنه كان يعرف أن السفينة المصرية قد وصلت لتعود بي إلى وطني ..

وقال :

وداعًا أيها المخلوق الصغير الشجاع .. عد في سلام إلى بيتك تصحبك بركاتي !

وانحنيت أمامه شاكرًا كرمه .. ومنحني كميات كبيرة من الهدايا والعطور الثمينة .. ومن القرفة والأعشاب ذات الرائحة العطرة .. ومن الأخشاب الغالية والبخور والعاج وأشياء كثيرة أخرى لا تقدر بثمن ..

وبعد أن نقلت كل هذه الهدايا إلى ظهر السفينة، أراد البحارة أن ينزلوا إلى الشاطئ ليروا تلك الجزيرة ويشاهدوا عجائبها وغرائبها .. ولكن حدث شيء غريب هكذا فجأة .. لقد بدأت الجزيرة تبتعد بسرعة عن السفينة .. وحل ظلام الليل بطريقة فجائية وعجيبة .. وعندما سطع نور القمر فأضاء صفحة السماء وانعكس على سطح البحر .. لم نر أي أثر للجزيرة ولم يكن هناك سوى أمواج لا أول لها ولا آخر ..

وهكذا أبحرنا نحو الشمال شهرًا بكامله .. وفي الشهر التالي وصلنا إلى الشواطئ المصرية . وهناك نزلت من السفينة وعبرت الصحراء الشرقية إلى أن وصلت إلى طيبة ..

والآن يا سيدي الوزير الأكبر .. أرجوك أن تقدمني إلى حضرة الفرعون لأقص على أسماعه الكريمة حكايتي ومغامرتي .. ولأضع تحت قدميه ما حملته من هدايا الملك الثعبان .. ولأطلب منه أن يجعلني قبطانًا على سفينة ملكية أبحر بها إلى حيث الأمواج التي تغسل شواطئ بلاد بونت ..!

* * *

وبعد أن انتهى الوزير الأكبر من سماع تلك الحكاية التي رواها هذا البحار، أخذ يضحك مسرورًا من صميم قلبه ، وقال :

سواء أكنت أصدق حكاياتك ومغامراتك أم لا أصدقها .. فإني على يقين من أنها ستشرح قلب الفرعون له الحياة والصحة والقوة .. ولهذا فسوف

أصحبك فورًا إليه وتأكد أنه سوف يمنحك هدية ثمينة بعد أن تروي له تلك الحكاية .. كما سيمنحني هدية ثمينة أخرى لأنني أحضرت إليه صاحب تلك الحكاية ..

* * *

وحدث هذا بالفعل .. فقد استمتع الفرعون أمنمحت بقصة هذا البحار الذي تحطمت سفينته وعاش في تلك الجزيرة العجيبة .. وأمر الفرعون على الفور بإحضار الكاتب الأول بالبلاط الملكي « أميني – آمون – عا » ليدوِّن تلك الحكاية على لفافة من ورق البردي لعل أحدًا يقرؤها في يوم من الأيام..

ووصلت إلينا اللفافة وقرأناها .. وعرفنا الحكاية بكل التفاصيل ..!

* * *

دانييل ديفو

روبنسون كروزو

ROBINSON CRUSOE
DANIEL DEFOE.

ولدت عام 1632م في مدينة « يورك » .. وكان أبي تاجرًا ثريًا اسمه «كروتزناور» ولكنه كان معروفًا باسم « كروزو » .. أما أمي فقد كانت تنتمي إلى عائلة « روبنسون » .. لذلك فقد أطلقوا على اسم « روبنسون كروزو » ..

كان أبي يتمنى أن أصبح محاميًا ، ولكني كنت شغوفًا بحياة البحار وأرغب بكل قلبي أن أعمل فيها .

وفي أحد الأيام كنت في زيارة لميناء « هَلْ » .. وقال لي أحد أصدقائي إنه سيسافر إلى « لندن » على ظهر إحدى السفن التي يمتلكها والده .. وعرض عليّ أن أصحبه في تلك الرحلة البحرية .

وفي أثناء الرحلة صادفتنا عاصفة عاتية وأصابني الخوف والهلع .. واستمرت الرحلة لمدة ستة أيام إلى أن وصلنا إلى ميناء « يارماوث » .. ولكننا لم نستطع دخول الميناء بسبب شدة الرياح .. فألقينا المخطاف وانتظرنا خمسة أيام أخرى حتى تهدأ العاصفة .. ولكن العاصفة لم تهـدأ ، بل ازدادت حدة، وارتفعت أمواج البحر العالية، وصارت تضرب جوانب السفينة بكل عنف، وامتلأ قاع السفينة بمياه البحر وبدأت تغرق ببطء ، فأرسل القبطان إشارات الاستغاثة طلبًا للمساعدة .

وبعد عدة محاولات يائسة ، استطاع القارب الذي أرسله لنجدتنا رجال المنارة القريبة أن ينقذنا من موت محقق .. ولو كنت أحسب الأمور بطريقة عاقلة ، فقد كان من الواجب ألا أعود إلى ركوب البحر مرة أخرى .. ولكني شعرت بشعور جارف يدفعني إلى مواصلة المغامرة .. ولذلك فقد قررت الذهاب إلى لندن ..!

* * *

كنت سعيد الحظ في لندن ، فقد تعرفت على قبطان سفينة تجارية قامت برحلات سابقة إلى سواحل « غينيا » .. وعرض عليَّ أن أصحبه في رحلته القادمة إلى تلك البلاد دون مقابل ، بل ونصحني بأن آخذ معي بعض السلع الخفيفة ، لأبيعها هناك وأحقق ربحًا .

واشتريت بعض السلع بأربعين جنيهًا وبعتها هناك مقابل خمسة أرطال من تبر الذهب، بعتها عندما عدت إلى لندن بثلاثمائة جنيه . فعاودت الكرَّة مرة أخرى، واشتريت بما قيمته مائة جنيه سلعًا خفيفة لأبيعها في رحلتي الثانية في مقابل المزيد من تبر الذهب .

ولكن هذه الرحلة الثانية كانت أتعس رحلة في حياتي .. فعندما كانت السفينة مبحرة بالقرب من « جزر الكناري » .. هجمت علينا سفينة من سفن القراصنة ، وقتلت وجرحت بعض رجالنا ، ووقعنا جميعًا في أسر هؤلاء القراصنة .

واختارني قبطان سفينة القراصنة لأكون في خدمته .. وبعد أن وصلنا إلى البر، سحبني القرصان إلى بيته لأواصل خدمته .. وظللت لمدة عامين كاملين في هذا الأسر المشين .. وكنت أخرج في بعض الأحيان لصيد الأسماك في قارب يقوده أحد أقارب القرصان وهو شخص مغربي .

ولأني كنت أفكر كثيرًا في الهرب ، فقد دبرت خطة لتزويد قارب الصيد ببعض الطعام وببندقية خبأتها في مكان سري بالقارب .. وفي إحدى المرات اصطحبني المغربي أنا وخادمًا آخر، لنقوم بالتجديف وأعمال الصيد الأخرى .. وكانت هذه الرحلة هي فرصتي العظيمة .. فما إن أصبحنا داخل البحر ، حتى أمسكت بالمغربي وحملته بكل قوتي ، وقذفت به إلى مياه البحر ..!

وعلى الفـور أخرجت البندقية من مخبئها ، وصوبتها نحو رأسه وهددته قائلاً :

إن في إمكانك أن تسبح إلى هذا الشاطئ القريب .. أما إذا حاولت العودة إلى القارب فسوف أطلق عليك النار ..!

وبعد أن ابتعد المغربي سابحًا نحو الشاطئ التفتُّ إلى الخادم الذي كان يشترك معي في التجديف ، وكان اسمه « إكسوري » ، وأقنعته بأن يشترك معي في رحلة الهروب ، ففرح بذلك فرحًا عظيمًا ، وأقسم بأن يكون مخلصًا لي حتى النهاية ..

وبدأنا نجدف بأقصى سرعة ، ثم فردت شراع القارب لنكتسب مزيدًا من السرعة .. وظللنا مبحرين لمدة خمسة أيام متواصلة حتى نصبح في مأمن من مطاردة أية سفينة تخرج إلى البحر لتتعقبنا ..

وفي صباح اليوم السادس أرسينا القارب على الشاطئ بجوار مصب نهر صغير ، ونزلنا إلى الشاطئ لنحصل على بعض الماء الصالح للشرب ، واستطاع « إكسوري » أن يصطاد حيوانًا صغيرًا أسعدنا كثيرًا عندما طهوناه وتناولنا لحمه الطازج .

وواصلنا الإبحار .. وكنا ننزل إلى الشاطئ كلما نفد ماء الشرب .. وفي إحدى المرات شاهدت أسدًا يختفي بين الأشجار بالقرب من الشاطئ.. وصوَّبت إليه بندقيتي وأطلقت النار فخرَّ الأسد صريعًا .. وطبعًا لم يكن لحم الأسد ذا فائدة ، فهو لحم لا يؤكل .. ولكني أردت الحصول على جلده .. وقضينا اليوم كله ونحن نسلخ جلد الأسد ، ثم فردناه على سطح القارب ليجف .. وبذلك أصبح جلد الأسد فراشًا صالحًا للنوم عليه.

وظللنا مبحرين نحو الجنوب لمدة ثلاثة أسابيع متواصلة .. وفجأة شاهدنا سفينة كبيرة عند خط الأفق ، فغيَّرنا اتجاه القارب وأبحرنا نحوها .. إلى أن اقتربنا منها .. وألقى إلينا بحارة السفينة بحبل ساعدنا في التسلق والصعود إلى ظهرها ..

* * *

فرحت باستعادة حريتي من جديد بعد أن تم إنقاذي بتلك السفينة العابرة .. وكان قبطان هذه السفينة كريمًا معي إلى أقصى حد .. فقد اشترى مني القارب الذي كنت أركبه بثمانين قطعة من الفضة ، كما اشترى العبد «إكسوري» بستين قطعة أخرى ، واشترى جلد الأسد بأربعين قطعة من الفضة .

كانت السفينة متجهة إلى البرازيل.. وهناك عرّفني القبطان بأحد أصدقائه من البرازيليين الذين يعملون في زراعة قصب السكر فأقمت في مزرعته وعشت حياة المزارعين .

وبعد مرور أكثر من أربع سنوات على بدء حياتي في البرازيل ، استطعت خلالها أن أتقن اللغة وأن أعقد صداقات كثيرة مع المزارعين ومع بعض التجار في « سان سلفادور » .. وكنت أحكي لهؤلاء الأصدقاء عن المغامرات

التي قمت بها .. وعن رحلاتي .. إلى سواحل « غينيا » وكيف كنت أبيع بعض الخرز الملون واللعب في مقابل تبر الذهب .. وشرحت لهم أن في استطاعتنا أن نحصل على كميات كبيرة من العاج وتبر الذهب ، وأن نشتري أيضًا مجموعة من العبيد اللازمين للأعمال الزراعية لو أننا قمنا برحلة إلى «غينيا» ومعنا كميات من اللعب والخرز الملون والمقصات المعدنية.

واقتنع الأصدقاء بهذه الفكرة وقررنا القيام برحلة بحرية إلى سواحل «غينيا» . وبعد نحو عشرة أيام من الإبحار المتواصل ، عبرت سفينتنا المنطقة الاستوائية .. وهناك هبَّت علينا عاصفة عاتية اشتدت فيها الرياح وارتفعت أمواج المحيط .. وظلت سفينتنا لمدة أسبوعين كاملين مثل ريشة في مهب الريح أو مثل قطعة من الفلين تتأرجح فوق الأمواج .

كنا قريبين من إحدى جزر الهند الغربية .. وفجأة ارتطمت سفينتنا بصخور قاع البحر التي كانت خافية تحت الماء ، ومالت السفينة على جانبها، وأخذت الأمواج العاتية تضربها بكل عنف ، وامتلأ سطحها وقاعها وعنابرها بماء البحر ، ولذلك فقد قررنا أن نغادر السفينة فورًا وقبل أن تتحطم وتغرق .. وهكذا تكدسنا في أحد قوارب الإنقاذ .. وكنا أحد عشر رجلاً .. وأخذنا نجدف بكل قوة في اتجاه الشاطئ .

ولا أدري كيف حدث هذا في لمح البصر .. فقد فوجئنا بموجة عالية كالجبل ، نزلت على القارب فأطاحت به في ضربة واحدة .. ووجدنا أنفسنا جميعًا سابحين في ماء البحر ، نصارع من أجل الحياة .

* * *

وبالرغم من أني سباح ماهر ، إلا أني وجدت صعوبة شديدة حتى وضعت قدمي في النهاية على أرض الشاطئ بجوار جرف صخري ، واستجمعت كل قواي الباقية وبدأت التسلق حتى أصل إلى قمة هذا الجرف الصخري وأصبح من مأمن من ضربات الموج .

وكان من الواضح أن جميع زملائي الذين كانوا معي في القارب قد ابتلعهم البحر ، وإنني الشخص الوحيد الذي نجا من الغرق .. ولم يكن معي أي طعام يؤكل ولا أية جرعة من ماء صالح للشرب .. وكل ما كان معي هو سكين وعلبة من الطباق !

وبدأت أتجول باحثًا عن أي مصدر للمياه أو أي شيء يؤكل ، وقطعت فرع شجرة واستعملت السكين في جعله على شكل رمح أستطيع أن أدافع به عن نفسي إذا هاجمني وحش أو أي حيوان مفترس في تلك المنطقة التي لا أعرف عنها شيئًا .. ولحسن الحظ فقد عثرت على ينبوع من الماء الصافي فشربت حتى ارتويت وبدأت أشعر ببعض التحسن .

ومهدت لنفسي مكانًا بين فروع شجرة عالية نمت فيه حتى الصباح .. وعندما استيقظت قررت أن أسبح حتى حطام السفينة ، لعلي أجد فيها أشياء تنفعني.. وبالفعل وجدت كميات كبيرة من الطعام الذي لم يفسد بماء البحر، والتهمت على الفور كمية من البسكويت لأني كنت جائعًا .. كما وجدت كميات لا بأس بها من الخبز والأرز والجبن واللحم المجفف .. وفي حجرة نجار السفينة عثرت على صندوق مملوء بالعدد والأدوات .. وفي حجرة القبطان عثرت على بندقيتين ومسدسين وكمية من الطلقات والبارود وبعض السيوف الصدئة ، كما عثرت على برميلين يحتويان على مسحوق البارود .

وجمعت بعض الصواري المكسورة وبعض ألواح الخشب والحبال ، وصنعت طوفًا مناسبًا يمكنه أن يتحمل كل الأشياء التي سوف أنقلها عليه.. كما استعنت بمجداف كبير مكسور ليساعدني في تحريك الطوف وتوجيهه ، حتى استطعت في النهاية أن أنقل جميع هذه الأشياء إلى أرض الشاطئ .. ولاحظت وجود تل مرتفع على بعد نحو ميل من الشاطئ ، فحملت بندقيتي وتوجهت إليه وبدأت في تسلقه حتى وصلت إلى قمته .

ومن هناك لاحظت أن المكان كله عبارة عن جزيرة صغيرة يحيطها البحر من كل الجهات .. وليست هناك أية علامة تدل على وجود أية جزيرة أخرى في مكان قريب .

وقبل أن يحل الظلام ، استخدمت بعض الألواح الخشبية التي أحضرتها معي ، وصنعت لنفسي مأوى بسيطًا يصلح للنوم وقضاء الليل . وفي صباح اليوم التالي صممت على الذهاب مرة أخرى إلى السفينة لأنقل منها كل الأشياء ذات الفائدة العملية ، وذلك قبل أن تهب عاصفة أخرى قد تؤدي إلى تحطيم السفينة وتمزيقها إلى قطع صغيرة ..

وخلال أسبوعين قمت بإحدى عشرة زيارة للسفينة لإحضار المزيد من الحاجيات ، حيث عثرت على مجموعة كبيرة من المسامير وبعض المسدسات وعدد كبير من الطلقات وكميات أخرى من البارود ، بالإضافة إلى قماش شراع من أشرعة السفينة ، وأرجوحة شبكية مما تستخدم في النوم، وبعض الأغطية وملاءات الفراش ، ودولاب صغير به ثلاثة من أمواس الحلاقة ومقص كبير ودستة من السكاكين والشوك الخاصة بتناول الطعام ، وبعض العملات الأوربية والبرازيلية تبلغ قيمتها ستة وثلاثين جنيهًا .

وبعد أن تيقنت من أنني سأعيش وحدي بتلك الجزيرة المنعزلة ، قررت أن أبني لنفسي بيتًا أقيم فيه إقامة دائمة .. ولابد أن تتوافر فيه أربعة شروط ضرورية .. فلابد أولاً أن يكون في مكان صحي ويقع بالقرب من مصدر للمياه العذبة .. ولابد ثانيًا أن تتوافر فيه الحماية الكافية من حرارة الشمس .. ولابد ثالثًا أن تتوافر فيه شروط الأمان والحماية من هجمات الحيوانات المتوحشة .. ولابد أخيرًا أن يكون مشرفًا على البحر بحيث أستطيع أن أرى منه أية سفينة يتصادف عبورها في البحر ، لعلها تنقذني من الحياة المنعزلة في تلك الجزيرة الموحشة .

* * *

وقبل أن أُقيم الخيمة الرئيسية التي سأتخذها سكنًا .. شرعت على الفور في إقامة سور استخدمت في بنائه مجموعة من الألواح الخشبية القوية هيأتها على شكل أوتاد مدببة السنون .. كما أن الحماية التي كان يكفلها التل المرتفع من الخلف ، جعلت هذا المكان آمنًا ومحميًا من أي خطر قد يتهددني .

وأقمت خيمتي من التيل السميك المستخدم كقماش للأشرعة ، وهيأت لنفسي سريرًا من الأرجوحة الشبكية التي كان يستعملها أحد الضباط البحريين العاملين على السفينة .. وكم كان النوم مريحًا في تلك الأرجوحة !

وكنت كل يوم أخرج حاملاً بندقيتي .. واكتشفت وجود قطيع صغير من الماعز الجبلي ، واستطعت بصعوبة أن أصطاد عنزة وفرت لي كمية من اللحم الطازج .

وابتدعت وسيلة لحساب مرور الأيام ، فقد أحضرت فرعين من الخشب جعلتهما على شكل صليب .. وكتبت على الفرع الأفقي : « جئت إلى هذه

الجزيرة في 30 سبتمبر سنة 1659 » .. أما الفرع الرأسي فقد كنت أحفر فيه بسكيني علامة صغيرة لكل يوم يمر ، وعلامة طويلة عند بداية كل شهر .

وبدأت في كتابة مذكراتي في مجموعة من الورق كنت قد عثرت عليها في السفينة ، حيث عثرت أيضًا على كمية كبيرة من الحبر ومجموعة من الأقلام . ومن الأشياء الأخرى التي كنت قد عثرت عليها في السفينة ولم أذكرها من قبل كلب وقطتان ، وجوال به بعض حبوب الشعير .

وقضيت عامًا كاملاً في صناعة ما كنت أحتاجه من أثاث .. فقد صنعت مقعدًا ومنضدة وبعض الرفوف لرص حاجياتي ، ومجموعة من الشماعات علقت عليها بنادقي ومسدساتي .

ثم قمت بزراعة حبوب الشعير فأنبتت وأثمرت حبوبًا أخرى استخدمتها كبذور .. كما زرعت حبوب الأرز .. وأصبح لديَّ مخزون كافٍ لصناعة ما أحتاجه من الخبز والأرز .

* * *

وبعد مرور نحو عشرة شهور على مجيئي إلى تلك الجزيرة للمرة الأولى، بدأت جولات استكشافي لأرجاء الجزيرة وكافة مناطقها .. واكتشفت واديًا جميلاً به ينبوع من الماء الصافي الرائق نبتت من حوله مجموعة رائعة من الزهور وأشجار العنب البري .. وطبعًا أكلت من هذا العنب حتى شبعت ، وقطفت مجموعة كبيرة من العناقيد لكي أجففها لتصبح زبيبًا لذيذًا .

وتعلمت صناعة بعض السلال من الفروع الرفيعة التي كنت أقطعها وأشذبها من الشجيرات .. كما تعلمت صناعة بعض الأواني من الطين المحروق في النار .

وفي الجانب الآخر من الجزيرة اكتشفت وجود جزيرة أخرى تبعد عن جزيرتي بنحو عشرين ميلاً .

وهكذا مرت الأيام والأسابيع والشهور ، واكتمل عامان على حياتي بتلك الجزيرة المتعزلة ، دون أن تظهر أية علامات تدل على إمكان إنقاذي وعودتي مرة أخرى إلى العالم المعمور ..!

* * *

بليت معظم ثيابي وأصبحت هلاهيل ممزقة .. وكان من الضروري أن أصنع لنفسي ملابس أخرى من جلد الماعز .. فصنعت قبعة وصدرية وسروالاً ومظلة تقيني من حرارة الشمس ومن البلل حين تمطر السماء .

وقررت أن أبني مركبًا بالرغم من عدم معرفتي لطريقة تصميم المراكب ، وبعد عدة أسابيع من العمل المتواصل الشاق استطعت أن أصنع مركبًا كبيرًا يمكن أن يتسع لجميع الحاجيات الضرورية التي لابد أن آخذها معي إذا نويت القيام بأية رحلة بحرية .

وكانت أول رحلة قمت بها هي الدوران حول سواحل الجزيرة .. وبين حين وآخر كنت أتوقف عند أحد الشواطئ للراحة أو للاستكشاف ، وفي إحدى هذه المرات اكتشفت شيئًا غريبًا .. لقد رأيت بعينيَّ أثرًا لقدم إنسان .. وكان هذا الاكتشاف مفاجأة مذهلة ، وكأنه صاعقة من السماء نزلت فوق رأسي ..!

انتابني الخوف وأصبحت أكثر حذرًا وقلقًا .. وازدادت مخاوفي حين رأيت شيئًا فظيعًا آخر ملأ قلبي بالرعب والفزع .. رأيت رؤوسًا وأيادي

وأقدامًا وعظامًا آدمية متناثرة على رمال الشاطئ .. ورأيت أيضًا آثار الرماد المتخلف من نار كانت مشتعلة في ذلك المكان .. وكان من الواضح أن بعض المتوحشين قد حضروا إلى هذا المكان بالجزيرة ، وأقاموا وليمة وحشية أكلوا فيها بعض ضحاياهم من البشر .. كان منظرًا لا يحتمل ، فأدرت وجهي حتى لا أرى المزيد ، وأسرعت بالعودة إلى بيتي .

ومنذ تلك اللحظة قررت ألا أخرج من بيتي إلا إذا كنت مسلحًا بالبندقية والمسدسات والأسلحة الأخرى ، حتى أكون مستعدًا للدفاع عن نفسي ضد أي هجوم يشنه المتوحشون .. وقمت بالتجول في جميع أنحاء الجزيرة ، لأفحصها شبرًا شبرًا ولكني لم أعثر على أي أثر آخر لهؤلاء المتوحشين .

ومرت شهور أخرى إلى أن فوجئت ذات صباح برؤية دخان يتصاعد من نار مشتعلة في مكان يبعد نحو ميلين من بيتي .. وكانت هذه أول مرة يصل فيها المتوحشون إلى الجانب الذي أعيش فيه من الجزيرة .. وعلى الفور صعدت إلى قمة التل المجاور لبيتي لأراقب المكان الذي يتصاعد منه الدخان دون أن يراني أحد .. فرأيت تسعة من الرجال المتوحشين يتحلقون حول النار التي أشعلوها ليطبخوا فيها ضحاياهم من البشر .. ويبدو أن هؤلاء المتوحشين كانوا قد انتهوا من وليمتهم ، فقد أخذوا يرقصون حول النار حتى تعبوا ، ثم ركبوا قاربهم ورحلوا .. وخلفوا على رمال الشاطئ آثار الجريمة البشعة من عظام ودماء وقطع أخرى من أجساد الضحايا الذين التهموهم .

لقد غضبت من نفسي لأني لم أتدخل لمنع هؤلاء المتوحشين من هذا السلوك البشع .. وقررت أني لن أترك هؤلاء المتوحشين إذا جاءوا مرة أخرى إلى جزيرتي .. سوف أقتلهم جميعًا مهما كثر عددهم !

ومرت عدة شهور أخرى دون أن يحضر إلى جزيرتي أي زائر جديد.. وفي إحدى الليالي سمعت صوت فرقعة شديدة جاء من ناحية البحر .. فتسلقت التل بأقصى سرعة ، وأشعلت نارًا عالية بعد أن تخيلت أن إحدى السفن تواجه بعض الصعوبات وترسل إشارتها طلبًا للمعاونة والإنقاذ .. ثم سمعت صوت ارتطام عنيف داخل البحر ، ولكني لم أستطع أن أرى شيئًا بسبب شدة الظلام وكثافة الضباب .

وعندما وضحت الرؤية وانقشع الضباب في ظهر اليوم التالي ، رأيت حطام السفينة التي ارتطمت بصخور الشاطئ في ذلك المكان البعيد داخل البحر .. وأصابني اليأس والحزن على الذين ماتوا بالضرورة من جراء هذا الحادث .. وظللت أرقب الشاطئ والبحر لعلِّي أجد أثرًا أو علامة على ظهور ما يدل على وجود أحياء نجوا من تلك الكارثة ، ولكني لم أر أحدًا ولا شيئًا .

وركبت قاربي حتى وصلت إلى مكان الحطام ، وتأثرت جدًا من منظر تلك السفينة التي كانت تحمل الجنسية الأسبانية .. وأخذت أنادي لعل أحدًا يسمعني .. ففوجئت بوجود كلب ينبح نباحًا شبيهًا بالبكاء .. وعندما أشرت إليه بالحضور، قفز إلى سطح الماء وأخذ يسبح إلى أن انتشلته إلى ظهر قاربي .. وكان يعاني من شدة الجوع والعطش ، فقدمت إليه الطعام والماء ، فالتهم الطعام ولعق الماء بأقصى سرعة .

وصعدت إلى سطح الحطام .. فرأيت جثثًا كثيرة .. ولاحظت أن كل الطعام الذي كان موجودًا بمخزن المطبخ قد أفسدته مياه البحر .. ولكني عثـرت على صندوقـين كبيرين نقلتهما بصعوبة إلى ظهر مركبي على أمـل أن أجد فيهما أشياء تفيدني .

وعندما عدت إلى بيتي فتحت الصندوقين ، ووجدت في الصندوق الأول بعض زجاجات النبيذ وبعض الحلوى وعددًا من القمصان والمناديل والشيلان، كمـا عثرت فيه أيضًا على ثـلاث حقـائب كبيرة تحتـوي على نحو ألف قطعة كبيرة من النقود الفضية وبعض سبائك الذهب .. وكان الصندوق الثاني مملوءًا بالأقمشة والملابس !

ومرت شهور طويلة .. وذات صباح فوجئت بوجود نحو ثلاثين رجـلاً من المتوحشين الذين أشعلوا نارًا عاليـة، مـن المتوقـع أن يكـونوا قد أعدوها لطهو لحم الضحية البشرية التي ينوون التهامها .. وبالفعل لاحظت وجود أسيرين جالسين في استكانة في أحد القوارب انتظارًا لمصيرهما البشع المؤلم .

ولم يمض وقت طويل حتى قام بعض المتوحشين وسحبوا من القارب أحد هذين الأسيرين وبدأوا في ذبحه .. وفي تلك الأثناء انتهز الأسير الثاني تلك الفرصة ، وقفز إلى الشاطئ ، وأخذ يجري هاربًا من هذا المصير التعس الذي ينتظره .. وعلى الفور قام ثلاثة من هؤلاء المتوحشين وجروا وراء الأسير الهارب محاولين اللحاق به والقبض عليه .

وهنا طرأت في ذهني فكرة جيدة ، فلو أني استطعت إنقاذ هذا الأسير من القتل المؤكد ، فإنه سيدين لي بالولاء لأني أنقذت حياته .. وسوف يصبح خادمًا ورفيقًا لي في حياتي بتلك الجزيرة .

وهبطت بسرعة من أعلى التل معترضًا طريق المتوحشين ، وقتلتهم واحدًا وراء الآخر .. ووقف الأسير الهارب مشدوهًا .. ثم خرَّ راكعًا على الأرض أمامي ، وأخذ يقبِّل الأرض بالقرب من قدمي .. ففهمت أنه يقصد بذلك أن يكون خادمًا مخلصًا لي طوال حياته .

وعندما أقمته ورفعته عن الأرض ، هب واقفًا وهو يبتسم ، ويبدأ يحدثني بكلمات لم أفهم منها كلمة واحدة .. ومع ذلك فقد سررت كثيرًا بسماع هذا الصوت الإنساني الذي يحاول محادثتي بعد انقضاء أكثر من خمس وعشرين سنة لم أسمع فيها للإنسان صوتًا .

وأشرت للأسير بأن يتبعني حتى وصلنا إلى كهف خفي في أعلى التل.. ولاحظت أنه كان يعاني من شدة الجوع والعطش ، فأعطيته بعض الخبز والزبيب فأكل حتى شبع وشرب ماءً حتى ارتوى .. وأفهمته بأن علينا أن نقضي الليل في هذا الكهف بعيدًا عن هؤلاء المتوحشين الذين قد يبحثون عنا .

كان الأسير شابًا في حوالي السادسة والعشرين من عمره ، قوي الجسم والعضلات ، وشعره أسود ناعم غير مجعد ، ووجهه مستدير ، وله أنف صغير غير مفلطح ، وفم بشفاه رقيقة ، وأسنانه بيضاء ولامعة مثل قطع العاج .

وعندما استيقظ في الصباح ، بدأت أعلمه كيف يتحدث معي ويتفهم إشاراتي .. وأفهمته أني أطلقت عليه اسم « فرايداي » تيمنًا بيوم الجمعة الذي أنقذته فيه .. وأفهمته أيضًا بأن يناديني باسم « سيدي » عندما يريد أن يحادثني .



وخرجنا من الكهف لنري ماذا جري لبقية المتوحشين .. ولكننا لم نعثر لهم على أثر ، ولم نشاهد أي قارب من قواربهم .. وكان من الواضح تمامًا أنهم رحلوا دون أن يعبأوا بمصير زملائهم الذين اختفوا .

وعدت أنا و« فرايداي » إلى بيتي ، وأعطيته بعض الملابس ، وصنعت له سروالاً ومعطفًا من جلد الماعز ، وقبعة لطيفة من جلد الأرانب .. وأصبحت حياتي في الجزيرة سهلة ومريحة بسبب المساعدات التي كان يقوم بها «فرايداي» لمعاونتي .

* * *

وبمرور الوقت استطعت أن أعلِّم « فرايداي » كيفية النطق بالكلمات وبأسماء الأشياء .. وقال لي « فرايداي » إن شعبه يسمى باسم «الكاريبيين» .. وفي جهة الغرب حيث تذهب الشمس كل مساء يعيش شعب آخر أبيض البشرة ولهم ذقون شقراء .. وقال « فرايداي » في وصفهم : « إنهم يقتلون الكثيرين من رجالنا وشعبنا » .. ففهمت من كلامه أنه يتحدث عن الأسبان وقسوتهم الشديدة في التعامل مع شعوب أمريكا الجنوبية ، تلك القسوة التي ذاعت أخبارها في جميع أنحاء أوروبا .

وذات يوم بينما كنت أتحدث مع « فرايداي » عن كيفية وصولي إلى تلك الجزيرة بعد تحطم السفينة التي كنت أركبها .. أفهمني « فرايداي » بأنه رأى السفينة تتحطم على شاطئ الأرض التي كان يعيش فيها مع أهله .. وأن أهله استطاعوا إنقاذ سبعة عشر رجلاً من الرجال البيض الذين كانوا على ظهر هذه السفينة .

وكثيرًا ما كان يقول لي « فرايداي » إنه يريد العودة إلى وطنه حيث يعيش أهله .. وأنه يدعوني للذهاب معه لكي أعيش معهم هناك .. ولكن علينا أولاً أن نصنع مركبًا كبيرًا يتحمل طول الرحلة .

وقضينا شهورًا طويلة حتى انتهينا من بناء مركب كبير مجهز بصاريين وشراعين ومخطاف ودفة ..

وفي صباح أحد الأيام أيقظني « فرايداي » من النوم وهو يصيح مذعورًا : « سيدي .. هناك واحد .. اثنان .. ثلاثة قوارب » !

وعلى الفور صعدت إلى قمة التل ، فرأيت واحدًا وعشرين رجلاً من المتوحشين ، وكان معهم ثلاثة من الأسرى .. وكان المكان الذي اختاره المتوحشون هذه المرة قريبًا من مكان بيتي .. وكان من الواضح أنهم استعدوا لذبح أسراهم والتهامهم .. الأمر الذي أثار غضبي وجعلني أصمم على منع تلك العملية الوحشية وذلك بالهجوم على هؤلاء المتوحشين وقتلهم بمساعدة « فرايداي » .

وتزودنا بمجموعة من البنادق والمسدسات ، كما حملت سيفًا وأعطيت «فرايداي» فأسًا .. ووضعت خطة محكمة لهجوم مباغت على هؤلاء المتوحشين .. وفي تلك الأثناء كان المتوحشون قد ذبحوا أحد الأسرى وانشغلوا بأكل لحمه .. بينما كان الأسير الثاني ملقيًا على الأرض بجوار النار التي أشعلوها وهو مربوط بالحبال .. وكم كانت المفاجأة شديدة حين تبين لنا أن هذا الأسير رجل أبيض له لحية .

ولم نضيِّع الوقت وبدأنا هجومنا المباغت على هؤلاء المتوحشين فقتلنا منهم الكثيرين فيما عدا أربعة منهم استطاعوا الفرار إلى أحد قواربهم ..

وفككنا قيود الأسير الأبيض الذي كان يعاني من شدة الضعف والإحساس بالذعر .. وأخبرني بأنه أسباني ، وأخذ يشكرني بكلمات متقطعة على الجهد الذي بذلته لإنقاذ حياته .

وأعطيت الأسباني مسدسًا وسيفًا وطلبت منه أن يشترك معنا في القضاء على بقية المتوحشين حتى قضينا عليهم جميعًا .. وعندئذ قررت أن أتوجه أنا و« فرايداي » لركوب أحد القوارب لنتعقب المتوحشين الأربعة الذين لاذوا بالفرار إلى عرض البحر ، حتى لا يصلوا سالمين إلى أهلهم ويحكوا لهم عما جرى لزملائهم في الجزيرة ، وعندئذٍ سنواجه مصيبة كبرى حين يحضر المتوحشون بأعداد كبيرة إلى الجزيرة للثأر منا .

ولكن ما إنْ وصلنا إلى القارب ، حتى لاحظت أن هناك أسيرًا آخر كان راقدًا في قاع القارب مقيد اليدين والقدمين ويرتجف من شدة الخوف والرعب .

وفجأة حدث شيء غريب ، فما إنْ رأى « فرايداي » هذا الأسير حتى فوجئت به يعانقه ويقبله ويصيح فرحًا ويضحك ضحكات هستيرية ويغني بأعلى صوته ، كما لو كان قد أصابه مس من الجنون .. ولم أعرف لماذا تصرف « فرايداي » على هذا النحو إلا بعد أن هدأ قليلاً واستعاد شيئًا من رباطة جأشه ، وأخبرني أن هذا الأسير هو والده ..!!

وطبعًا نسينا كل شيء عن تتبع قارب المتوحشين الأربعة الذين أفلتوا واستطاعوا الهرب .. ولكن ربما كان ذلك من حسن حظنا .. فبعد أقل من ساعة ، هبت عاصفة عاتية وارتفعت أمواج البحر وأصبحت كجبال متحركة صاخبة .. وفي مثل هذه العاصفة ، كان من المستحيل أن يصل

هؤلاء المتوحشون إلى أرضهم .. وكان من المؤكد أنهم غرقوا .. ولو كنا تتبعناهم لتعرضنا نحن أيضًا للهلاك والغرق .

* * *

أصبحنا الآن أربعة من الرجال المتعاونين .. وأصبحت جزيرتي أشبه بمملكة صغيرة .. وكلما جلسنا معًا لتناول الطعام كنت أشعر كما لو كنت ملكًا جلس إلى المائدة ليتناول الطعام مع شعبه .

وعلمت من الأسباني أن هناك ستة عشر رجلاً أبيض آخرين كانوا قد أنقذوا من سفينتهم التي غرقت قرب شاطئ الأرض الرئيسية .. وهم يعيشون الآن في سلام آمنين مع الأهالي المتوحشين .. وعلمت منه أن سفينتهم كانت متوجهة من نهر « بلات » بالأرجنتين في رحلة بحرية إلى «هافانا» بجزيرة كوبا .

وعرضت على الأسباني أن يقوم برحلة بحرية مع والد « فرايداي » لإحضار هؤلاء الأسبان الستة عشر ليعيشوا معنا على أرض الجزيرة . فوافق الأسباني على هذا العرض شاكرًا .

وهكذا جهزنا لهما أحد القوارب .. وزودناهما بطعام يكفيهما هما والرجال الآخرين الذين سيعودون معهما لمدة ثمانية أيام .. وأعطيت كلًّا منهما بندقية وبعض الذخيرة حتى يمكنهما الدفاع عن نفسيهما إذا واجها أي خطر .. وودعناهما وتمنينا لهما رحلة سالمة وعودة آمنة .

* * *

وفي صباح أحد الأيام شاهدت قاربًا كبيرًا يقترب من شاطئ الجزيرة، ولكنه لم يكن القارب الذي ننتظر عودته .. وما إن استخدمت التلسكوب

حتى رأيت سفينة كبيرة واقفة بعد أن ألقت مرساها .. وتبين لي أنها سفينة إنجليزية .

وعندما وصل القارب إلى الشاطئ ، لاحظت أن به أحد عشر رجلاً تدل ملامحهم على أنهم من الإنجليز.. وبمجرد رسو القارب قفز منه أربعة رجال، وانزلوا معهم ثلاثة من السجناء .. أما بقية الآخرين فقد نزلوا من القارب ، وبدأوا يتجولون داخل الجزيرة .

جلس السجناء على رمال الشاطئ وكان من الواضح أنهم يائسون وفقدوا كل أمل في النجاة .. وظللت أرقب ما يحدث لعلّي أستنتج الهدف من وصول هذا القارب إلى الجزيرة .. ولاحظت أن مياه البحر قد انسحبت وانحسرت بسبب الجزر ، واستقر القارب فوق الرمال .. وكان معنى ذلك أن جميع هؤلاء الرجال سيبقون بالجزيرة لمدة عشر ساعات على الأقل حتى يعود المد من جديد .

وفي الساعة الثانية بعد الظهر ، كانت الشمس في أوج حرارتها ، وكنت قد انتهيت من تعمير جميع بندقياتي ومسدساتي وحشوها بالطلقات والبارود استعدادًا لمعركة مرتقبة .. ولاحظت أن جميع الرجال ذهبوا ليناموا في ظلال الأشجار داخل الغابة ، وتركوا السجناء الثلاثة جالسين فوق الرمال الساخنة .. وقررت أن أذهب أولاً إلى هؤلاء السجناء لأستطلع الأمر وأعرف حكايتهم .

وعلمت من كبيرهم أنه قبطان تلك السفينة الإنجليزية الراسية داخل البحر .. وأن بعض أفراد الطاقم تمردوا ضده ، وكانوا ينوون قتله بعد أن استولوا على السفينة ، إلا أنهم غيَّروا رأيهم وقرروا إنزاله هو واثنين من

أخلص أتباعه إلى تلك الجزيرة التي يظنونها جرداء خالية من الطعام والماء لكي يموتوا من الجوع والعطش .

وعلى الفور قمت بتسليح القبطان وزميليه الآخرين ، واتفقت معه على خطة للقبض على جميع المتمردين واستعادة السفينة مقابل أن يصحبني القبطان معه في رحلة العودة إلى إنجلترا .

وبعد معركة كدنا نتعرض فيها للقتل استطعنا في النهاية أن نقضي على اثنين من أخطر المتمردين ، وأن نلقي القبض على بقية المتمردين الآخرين الذين استسلموا لنا وطلبوا العفو عنهم والرحمة بهم .. وهكذا كسبنا الجولة الأولى ، وبقيت أمامنا معركة استعادة السفينة .

* * *

بعد أن قبضنا على هؤلاء المتمردين أمرت بتقييد أيديهم وأرجلهم ، وأن نحتفظ بهم كسجناء داخل الكهف بأعلى التل .. وقلت للقبطان أن ننتظر الخطوة التالية التي سيقوم بها بقية البحارة المتمردين الذين ما زالوا على ظهر السفينة ، فمن المتوقع أن يرسلوا قاربًا يحمل بعضًا منهم لكي يبحثوا عن السبب في عدم عودة القارب الأول .

وعلمت من القبطان أن عدد الرجال الذين ما زالوا على ظهر السفينة ستة وعشرون رجلاً .. ولم يمض وقت طويل حتى سمعنا طلقة أطلقتها السفينة لحث القارب الأول على الإسراع بالعودة .. وبعد أن تأكد الرجال الذين ما زالوا على ظهر السفينة من عدم ظهور أية علامة للاستجابة إلى إشارتهم ، أرسلوا قاربًا آخر عليه عشرة من الرجال المسلحين لمعرفة مصير القارب الأول ومن كانوا عليه .

وضعنا خطة محكمة وقمنا بمناورات وحيل عديدة حتى استطعنا في النهاية السيطرة على القارب الثاني والرجال العشرة القادمين عليه ، بعد أن قتلنا منهم اثنين من أخطر الرجال الذين قادوا حركة التمرد .. وقيدنا أيادي الرجال الثمانية الباقين ، وأرسلناهم إلى الكهف مع بقية سجنائنا الآخرين .. وقام القبطان بزيارة جميع هؤلاء المقبوض عليهم ، وألقى أمامهم خطبة قال فيها :

« كنتم أغبياء ملأ الشر قلوبكم .. وما لم يتغير سلوككم فإنكم ستعلقون بالمشانق كعقوبة ينص عليها القانون الإنجليزي تطبق على جريمة التمرد على السفن .. وعندما أحضرتموني إلى هنا كنتم تظنون أن هذه الجزيرة جرداء لا حياة فيها ولا يسكنها أحد .. وكنتم تظنون أني سأموت فيها جوعًا وعطشًا .. ولكن هذه الجزيرة يحكمها رجل إنجليزي ، وكلكم الآن أسرى عنده .. ومن المحتمل أن يرسلكم حاكم الجزيرة إلى إنجلترا حيث تحاكمون هناك طبقًا للقانون الذي يقضي بإعدامكم » .

خرَّ جميع السجناء راكعين أمام القبطان طالبين منه الرحمة ، وتوسلوا إليه أن يستخدم نفوذه لدى حاكم الجزيرة لكي يعفو عنهم ، وأعلنوا ندمهم وتوبتهم ، وأقسموا على أن يكونوا مخلصين للقبطان ولن يعودوا إلى التمرد مرة أخرى .

وعرض القبطان كل ما دار بينه وبين رجال الطاقم المقبوض عليهم.. واتفقت معه على خطة أخرى .. فذهب القبطان إلى السجناء وقال لهم إن حاكم الجزيرة وعده بالإبقاء على حياتهم أثناء وجودهم بالجزيرة .. ووعده أيضًا بأنه سيعفو عنهم كلية إذا قاموا بمساعدته في استعادة السفينة وتخليصها من بقية المتمردين الآخرين الذين ما زالوا على ظهرها .

وبطبيعة الحال ، هلَّل جميع السجناء من شدة الفرح عندما سمعوا هذا العرض ، ووعدوا القبطان بأن يبذلوا كل جهدهم في مساعدته في استعادة السيطرة على السفينة ، وأقسموا بأن يكونوا مخلصين مطيعين له طوال حياتهم.

وعندما عاد إليَّ القبطان مرة أخرى طلبت منه أن يقوم باختيار خمسة من السجناء الذين يثق فيهم ثقة كاملة .. وأن يخبر جميع السجناء الآخرين بأنهم سيعتبرون رهائن حتى يتم تنفيذ عملية استعادة السفينة بنجاح .. وأن الرهائن سيقتلون فورًا إذا حدثت أية خديعة أو أية بادرة تشير إلى عدم إخلاص الرجال الخمسة الذين اختارهم لمشاركته في عملية استعادة السفينة .

أصبح لدى القبطان الآن فريق مكون من اثني عشر رجلاً ، كلهم كانوا مستعدين للعمل معه في معركة استعادة السفينة .. أما أنا و«فرايداي» فقد بقينا في الجزيرة ننتظر نتيجة المعركة ..

وعندما حل ظلام الليل أخذ القبطان رجاله في قاربين ، وبدأت عملية التسلل إلى السفينة للسيطرة على الرجال الذين على ظهرها .. وحدثت معركة بالبنادق والمسدسات انتهت بمقتل أحد الرجال الخطرين الذين قادوا التمرد .. وبمقتل هذا الرجل استسلم جميع الرجال الآخرين..

وبعد أن سيطر القبطان على السفينة أطلق القبطان سبع طلقات في الهواء .. وهي الإشارة التي اتفقنا عليها لإبلاغي بأنه نجح تمامًا في مهمته .. وعندئذ اطمأن قلبي ، وذهبت إلى بيتي لأستريح من شدة التعب الذي عانيته في هذا اليوم ، واستغرقت في النوم .

وفي صباح اليوم التالي جاءني القبطان ليصحبني إلى السفينة للعودة إلى وطني .. ولم أتمالك شعوري فأخذت أبكي .. وبعد أن هدأت سألت القبطان عن مصير السجناء الذين نحتفظ بهم في الكهف ، فقال القبطان إن من واجبه أن يسجنهم داخل حجرة مغلقة بالسفينة ويقوم بتسليمهم إلى أقرب مستوطنة إنجليزية حيث يحاكمون طبقًا للقانون الإنجليزي الذي يقضي بإعدام المتمردين على السفن .

ولكني عرضت على القبطان فكرة أخرى ، وقلت له إن هؤلاء السجناء قد يفضلون البقاء في هذه الجزيرة ؛ إذا أعطيناهم فرصة لاختيار مصيرهم ، فقبل القبطان هذه الفكرة .. وقبلها السجناء أيضًا باعتبارها فرصة للنجاة من الموت شنقًا .

وبدأت في جمع حاجياتي ومتعلقاتي قبل أن أغادر الجزيرة بصفة نهائية .. وأخذت معي ملابسي المصنوعة من جلد الماعز بعد أن أعطاني القبطان ملابس أوربية جميلة .. كما أخذت معي قبعتي ومظلتي المصنوعتين من جلد الماعز .. وأخذت النقود التي كنت قد عثرت عليها في حطام السفينة الأسبانية .

وبدأت السفينة في الإقلاع مبحرة إلى عرض البحر ..

وهكذا غادرت الجزيرة في اليوم التاسع عشر من شهر ديسمبر 1686.. ووصلت إلى إنجلترا بعد رحلة بحرية طويلة ، في اليوم الحادي عشر من شهر يونيو 1687.

وبحمد الله عدت إلى وطني مرة أخرى بعد غربة استمرت نحو خمسة وثلاثين عامًا .. !!

* * *

رجال عظام .. ونساء عظيمات

GREAT MEN AND WOMEN
By: Leslife Livette

(1) المهاتما غاندي

- في بيته : في 2 أكتوبر 1869 ، ولد «موهانداس غاندي» في إحدى مدن غرب الهند .. و«موهانداس» هو اسمه الأول .. أما لقب «المهاتما» فهو لقب منح إليه فيما بعد ، ومعناه : « الروح الكبير » .

كان أبوه موظفًا كبيرًا في إحدى ولايات الهند .. وكانت أمه سيدة متدينة محبة للصلاة وللصوم طبقًا لتعاليم الديانة الهندوسية .

- في المدرسة : ألّف « المهاتما غاندي » كتابًا يحكي فيه بعض ذكرياته عن سنوات طفولته المبكرة.. ذكر فيه أنه كان قليل الأصدقاء.. وكان أصدقاؤه الوحيدون هم كتبه ودروسه .. وأنه كان معروفًا بالصدق والأمانة ولا يعرف الكذب.. وكان لا يحب «الألعاب الرياضية المدرسية» ويعتبرها مضيعة للوقت .. ولكنه أدرك فيما بعد الفوائد الثمينة لرياضة «المشي» ، فبدأ منذ صباه في المشي لمسافات طويلة في الهواء الطلق .. وظل يمارس تلك الرياضة طوال حياته .

واعترف غاندي بأن خطه كان رديئًا ويُقرأ بصعوبة .. ولذلك فقد كان يحاول بإصرار أن يتعلم تحسين خط كتابته بعد أن أدرك أن الكتابة بخط رديء تعتبر علامة ضعف في الإنسان .

- الزواج : تزوج «موهانداس» وهو في سن الثالثة عشرة .. وكانت هذه السن المبكرة تعتبر أمرًا طبيعيًا ومناسبًا للزواج في الهند في تلك الأيام .. وكانت عروسه فتاة صغيرة لم تذهب قط إلى المدرسة .. وفي البداية كان هذا الزواج سببًا في صرفه عن تحصيل دروسه .. ولكنه استطاع بعد ذلك أن يعوِّض ما فاته . .
- أخطاء الشباب : كان من ضمن زملائه بالمدرسة ، شاب صغير لا يتمتع بأخلاق طيبة .. فصادقه «موهانداس» على أمل أنه قادر على تغيير وتحسين أخلاق صديقه .. ولكن هذا الصديق استطاع أن يغري «موهانداس» بأكل اللحم .. بالرغم من أن أسرة غاندي كانت تؤمن بعقيدة دينية تحرم إزهاق روح أي مخلوق من المخلوقات ، وكانت تحرم أكل اللحم تحريمًا قاطعًا .

كذلك فقد أغراه صديق آخر بتدخين السجائر تقليدًا للرجال الكبار حين ينفثون الدخان من أفواههم وأنوفهم .. ولما كان «موهانداس» وصديقه لا يملكان نقودًا كافية لشراء السجائر ، فقد اضطر لسرقة قليل من النقود من خدم المنزل .. وعندئذ أدرك «موهانداس» خطورة جميع هذه الأخطاء التي يرتكبها دون علم أسرته .. فامتنع عن تناول اللحم .. وامتنع عن التدخين .. وكتب رسالة أعطاها لوالده .. يعترف فيها بجميع تلك الخطايا التي ارتكبها في حق نفسه وحق أسرته .. وأنّب نفسه تأنيبًا شديدًا .. وأقسم أنه لن يعود إلى مثل هذا في المستقبل .

توقع «موهانداس» أن يسمع من أبيه كلمات غاضبة أو يتلقى عقابًا صارمًا .. ولكن مشاعر الحب التي عمر بها قلب الأب ، ظلت راسخة في

ذهن «موهانداس» طوال حياته.. وأدرك أن مشاعر الحب كفيلة دائمًا بتصحيح وإصلاح كل الأخطاء.

- في إنجلترا: في سن الثامنة عشرة رحل غاندي إلى إنجلترا ليدرس القانون، وذلك بالرغم من معارضة بعض رجال الدين الهندوسي .. وصادف غاندي في إنجلترا مشكلتين طريفتين .. أولاهما أنه « نباتي » تمنعه عقيدته الدينية من أكل اللحم ، وكان يخشى أن يصبح محل سخرية ، ولكنه اكتشف أن في إنجلترا كثيرين من الإنجليز نباتيين لا يأكلون اللحم لأسباب صحية .. أما المشكلة الثانية فهي أنه كان يرغب في أن يؤدي دور «الجنتلمان» الإنجليزي .. وهو دور كلفه معظم أمواله حيث اشترى ملابس أوروبية جديدة وقبعة عالية من الحرير ليظهر « الجنتلمان » .

ولكنه أدرك في النهاية أن كل ذلك يعتبر مضيعة للوقت بلا طائل، فتوقف عن هذا كله وبدأ يدرس القانون دراسة جدية وبكل همة .

ثم انهمك أيضًا في الدراسات والقراءات الحرة .. خصوصًا فيما يتعلق بالعقائد والأديان .. فدرس كتاب « الجيتا » وهو الكتاب المقدس في العقيدة الهندوسية .. كما درس « الإنجيل » وتعاليم المسيح عليه السلام .. ومن خلال قراءته لكتاب المؤلف الإنجليزي «كارليل» تمكن من معرفة الكثير عن سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، وأعجبت كثيرًا بعظمته وشجاعته وبأسلوب الحياة البسيطة التي كان يحياها هذا النبي العظيم .

- العودة إلى الهند : وبعد أربع سنوات متتالية من دراسة القانون ، اجتاز غاندي الامتحان النهائي وحصل على الشهادة سنة 1891 . وقرر العودة إلى وطنه .. ولكن عمله بالمحاماة لم يسره ، وأدرك أن هذه المهنة لا تناسبه .

وطلب منه أحد أقربائه أن يذهب إلى جنوب أفريقيا للتفاهم مع أحد أثرياء التجار الهنود على حل مشكلة مالية .. فسافر غاندي إلى مدينة «دربان» بجنوب أفريقيا وكان عمره آنذاك أربعة وعشرين عامًا .

- في جنوب أفريقيا : اكتشف غاندي خلال وجوده هناك أن مواطنيه الهنود الذين يعيشون في جنوب أفريقيا يعانون ظروفًا سيئة وصعبة أظهرها التفرقة العنصرية بينهم وبين البيض . وقد تعرض هو نفسه لتلك المعاملة الرديئة واحتقار البيض له . فقد طردوه من المحكمة ؛ لأنه كان يضع على رأسه عمامة هندية .. وطردوه من عربة الدرجة الأولى بالقطار بعد أن استاء أحد الرجال البيض من وجوده داخل العربة المخصصة للبيض وحدهم ، بالرغم من أن غاندي كان قد اشترى تذكرة السفر بتلك العربة ودفع ثمنها.. كما طردوه أيضًا من إحدى عربات السفر التي تجرها الخيول بعد أن رفض البيض ركوبه بجانبهم وأجبروه على الجلوس خارج العربة جوار السائق .. وتعرض غاندي للضرب عدة مرات .. كما رفض موظفو الفنادق أن يعطوه حجرة لينام فيها؛ لأن الفنادق مخصصة للبيض وحدهم.

وهكذا استمرت الإهانات التي جعلته يحس بالألم والمرارة بسبب هذا الاحتقار الذي يعانيه الهنود من أهل وطنه الذين يعيشون في جنوب أفريقيا . وكان يحاول دائمًا أن يواجه هذا الظلم وهذه المعاملة المتعالية التي لا تعرف العدل .

ونجح غاندي في حل المشكلة المالية التي نشبت بين المتخاصمين الهنديين بطريقة ودية دون اللجوء إلى المحاكم . وكان هذا النجاح سببًا في اقتناع غاندي بأن معظم المشاكل التي تنشأ بين الناس ، يمكن لوسطاء الخير أن يحلوها بسلام وبطريقة ودية .

وخلال وجوده في جنوب أفريقيا حاول الهنود المسيحيون أن يحثوه على اعتناق المسيحية ، كما حاول الهنود المسلمون أن يحثوه على اعتناق الإسلام .. وكان غاندي قد استمر في قراءة الكثير من الكتب والمراجع التي تتعلق بالإنجيل والقرآن وديانته الهندوسية .

وبعد أن انتهت المهمة التي جاء من أجلها إلى جنوب أفريقيا ، طلب منه الهنود الذين يعيشون هناك أن يبقى معهم ليدافع عن حقوقهم .. وقبل غاندي هذا الطلب .. وبدأت عشرون سنة من العمل الشاق لصالح الهنود الذين يعيشون في جنوب أفريقيا .

- **بداية كفاحه :** وبعد انقضاء السنوات الثلاث الأولى ، عاد غاندي إلى الهند في زيارة استمرت بضعة شهور ، ثم عاد إلى جنوب أفريقيا مرة أخرى مصطحبًا معه زوجته وابنيه .

ولكن في أثناء تلك الزيارة للهند ، حاول غاندي بكل الطرق أن يشرح للشعب الهندي مدى الإهانات والمعاملة السيئة التي يعانيها إخوانهم الهنود الذين يعيشون في جنوب أفريقيا .. وألقى كثيرًا من الخطب وكتب كثيرًا من المقالات حول هذا الموضوع .. ووصلت أخبار تلك الخطب والمقالات إلى المستوطنين البيض في إقليم « ناتال » بجنوب أفريقيا .. فتربصوا به حينما عاد، وقذفوه بالحجارة والبيض، واعتدوا عليه بالضرب حتى كادوا يقتلونه لولا أن أنقذته امرأة إنجليزية وهي زوجة رئيس الشرطة .

ولا يمكن حصر جميع الحوادث التي تعرض لها غاندي أثناء كفاحه لمساعدة الهنود الذين يعيشون في جنوب أفريقيا وتحسين أحوالهم .. ونتيجة لهذا الكفاح المستميت ، اكتسب غاندي إيمانًا لا حدَّ له ببعض طرق الكفاح

التي اتبعها فيما بعد ضد المستعمرين الإنجليز في وطنه الأم .. لقد آمن غاندي بالقوة الروحية الكامنة في الإنسان .. تلك القوة التي تمكنه من مواجهة الشر ومكافحة القوة .. لكن ليس بالبغض ولا بالكراهية واستعمال العنف ، وإنما بالحب والهدوء .. وبرفض إطاعة الأوامر والقوانين الجائرة .. والامتناع تمامًا عن العمل مع الحكومة ، والامتناع عن تنفيذ أي قانون ظالم .

- **العمل من أجل فقراء الهند** : غادر غاندي جنوب أفريقيا عائدًا إلى الهند حيث كان الهنود يتابعون نضاله في جنوب أفريقيا بإعجاب كبير .. لذلك فقد اعترفوا بغاندي فور عودته كقائد وزعيم .. وأطلقوا عليه لقب «مهاتما» ومعناه الروح الكبير .

واختار غاندي محل إقامته بالقرب من مدينة « أحمد أباد » وأسس هناك معتزلًا دينيًّا سماه «الأشرام» ودعا شعب الهند للانضمام إليه بصرف النظر عن أجناسهم أو دياناتهم أو عقائدهم الدينية .. ولم يطلب من المنضمين إليه سوى الالتزام بالمبادئ التالية :

1- أن يقولوا الصدق دائمًا .

2- ألا يحاربوا أو يكرهوا الناس الآخرين .

3- ألا يأكلوا إلا القدر الضروري من الطعام الذي يكفي للمحافظة على صحتهم .

4- ألا يمتلكوا شيئًا لا ضرورة له .

وساعد غاندي طبقة « المنبوذين » وهم من أفقر فقراء الهنود .. كما ساعد فقراء الفلاحين وفقراء العمال.. وحث الشعب الهندي على التعاون والتكافل وتحسين أحوال الكادحين .. ودعا إلى الالتزام بمبدأ « عدم استعمال العنف »

بأي صورة من صوره.. ودعا الشعب الهندي كله إلى رفض الأوامر والقوانين التي تصدرها حكومة المستعمرين الإنجليز ، مع الاستعداد الهادئ لتحمل عقوبة هذا الرفض أو العصيان .

- **مسيرة نحو البحر** : آمن الشعب الهندي بتعاليم غاندي التي تدعو إلى مكافحة القوة بالحب ، بدلًا من مكافحة القوة بالقوة .. وفي عام 1930 قام غاندي بمسيرة شهيرة في تاريخ الهند الحديث، سميت باسم «مسيرة الملح». وكانت الحكومة قد أصدرت قانونًا بمنع الناس من صناعة الملح من ماء البحر ، وذلك إجبار الناس على شراء الملح الذي تصنعه الحكومة .

وأعلن غاندي رفضه لهذا القانون الجائر ، ودعا الناس إلى مسيرة معه نحو البحر الذي يبعد بنحو مائتي ميل .. وهناك سيصنع بنفسه بعضًا من الملح تحديًا لهذا القانون .. واستمرت هذه المسيرة ثلاثة أسابيع متصلة .. وذاعت شهرتها في معظم أنحاء العالم .. واشتعلت الاضطرابات في معظم أنحاء الهند .. وواصل غاندي مسيرته التي انضم إليها عشرات الآلاف من الهنود.. وكان غاندي يقود المسيرة بثبات ، وليس على جسمه النحيل سوى الثوب القطني الأبيض البسيط الذي غزل خيوطه ونسج قماشه بيديه ..

ويسبب هذه المسيرة سجنته الحكومة لمخالفته لقانون الملح .. ولكنه خرج من السجن بعد العقوبة ليواصل كفاحه من أجل شعب الهند .

- **حكومة ذاتية لشعب الهند** : واستمر هذا الكفاح سنين طويلة .. في سبيل الحصول على استقلال الهند .. وتكوين حكومة ذاتية من أبناء الشعب الهندي دون تدخل من جانب المستعمرين الإنجليز .. وكان غاندي يكتب المقالات ويلقي الخطب التي تدعو الهنود لمواصلة كفاحهم ضد المستعمرين دون استخدام العنف حتى ولو استخدم المستعمرون العنف ضدهم.



وأصبح أتباعه يزدادون كل يوم عددًا وقوة .. وكان الناس يتجمهرون بأعداد غفيرة لرؤيته وسماع خطبه .. ووفد إليه زعماء الهند وقادة الشعب الهندي من كل الأرجاء .. كما وفد إليه الزعماء المناضلون ضد الاستعمار من مختلف شعوب العالم .. وعندما كان بعض أتباعه يستخدمون العنف ضد الحكومة ، كان يضرب عن الطعام حتى يتوقف العنف .

وبعد كل هذه السنوات الطويلة من الكفاح والأحزان والمآسي ، صدر إعلان استقلال الهند .. وبالرغم من ذلك فقد كان غاندي يشعر بالألم والمرارة بسبب الخلافات والاضطرابات التي نشبت بين المسلمين والهندوس .. والتي كانت سببًا في تقسيم الهند إلى دولتين : الهند للهندوس ، وباكستان للمسلمين .

- عندما اقتربت النهاية : شب القتال بين الطائفتين في معظم أنحاء الهند ، خصوصًا في المناطق والولايات التي كان يعيش فيها الهندوس والمسلمون جنبًا إلى جنب .. وقتل آلاف من الرجال والنساء والأطفال من الطرفين.. وتشرد مئات الآلاف وأصبحوا بلا مأوى ويتعرضون لمختلف أنواع العذاب والعناء.. وأعلن غاندي صيامه وإضرابه عن الطعام حتى يتوقف هذا الصراع الرهيب .

وفي يوم 30 يناير سنة 1948 ، وبينما كان غاندي يمشي ببطء متجهًا إلى معبد قريب لأداء الصلاة.. ووسط جمهور حافل اجتمع لمشاهدته وللاشتراك معه في صلاته .. اندفع إليه شاب «هندوسي» وأطلق عليه الرصاص ، ظنًّا منه أنه يقف إلى جانب المسلمين أكثر من وقوفه إلى جانب الهندوس .

ونعاه الزعيم الهندي « بانديت نهرو » من إذاعة الهند قائلًا : « .. لقد رحل الأب الروحي لأمتنا .. وإن خير الصلاة نقدمها لروحه هي أن نتمسك بأهداب الصدق .. وان نواصل رسالته النبيلة التي عاش من أجلها ومات من أجلها .. » .

وطبقًا لتعاليم الديانة الهندوسية ، أحرق جثمان غاندي أمام جمهور غفير .. ونثر رماده فوق أنهار الهند المقدسة .. وهكذا انتهت حياة رجل من أعظم الرجال في هذا العالم .

* * *

(2) فلورنس نايتنجيل

حاملة المصباح

• في بداية حياتها : في سنة 1820 ، ولدت «فلورنس» في مدينة فلورنسا لأبوين من أثرياء الإنجليز كانا يقومان بدولـة في إيطاليا .. وقد أطلق الأبوان عليها اسم «فلورنس» تيمنًا باسم هذه المدينة الإيطالية . وكانت لها أخت تكبرها بسنتين اسمها « بارثي » .. وقد أطلق الأبوان عليها هذا الاسم تيمنًا باسم مدينة « نابولي » الإيطالية باللغة اليونانية ، وذلك لأن هذه الأخت قد ولدت في تلك المدينة .

وعاشت « فلورنس » طفولتها في إنجلترا .. وبالرغم من أن والديها كانا من الطبقة الراقية ، إلا أنهما كانا على غير وفاق ومختلفين في الأمزجة .. ففي حين كانت الأم مرحة وأنانية وتحب الحياة الممتلئة بالمباهج ، كان الأب لطيفًا طيبًا .. وبسبب ثرائه كان لا يحب القيام بأي عمل سوى القراءة وصيد الحيوانات والأسماك والسياحة في مختلف البلدان .

وبالرغم من أن « فلورنس » لم تكن سعيدة في طفولتها ، إلا أنها كانت واسعة الخيال ، وتهرب دائمًا إلى عالم الخيال .. تؤلف قصصًا تحكيها لنفسها .. وتكتب كل مشاعرها وأحاسيسها وكل ما يدور بعقلها على قصاصات من الورق ، مازال الكثير منها محفوظًا حتى الآن .

- أصوات تناديها : وعندما بلغت السابعة عشرة ، حدث لها ما حدث من قبل للفتاة الفرنسية «جان دارك» .. وفي إحدى الأوراق التي كتبتها «فلورنس» في هذه السن نقرأ ما يلي : « ... في 7 فبراير 1837 سمعت صوتًا يناديني من السماء ، ويدعوني لكي أكرس حياتي لخدمة الله ... » . ولكن هذا الصوت الذي دعاها إلى أن تكرّس حياتها لخدمة الله ، لم يوضح لها كيف تقوم بهذه الخدمة .. أو ما هو نوع هذه الخدمة بالضبط وكيفية ومكان أدائها .. وكانت فكرة «التمريض» بعيدة تمامًا عن عقلها في ذلك الوقت .. مع أنها كانت تحرض دائمًا على تمثيل دور الطبيب لعرائسها ودماها .. كما كانت تعتني بصحة حيواناتها وطيورها المنزلية ، وتعطف كثيرًا على الرضع والأطفال الصغار .

- التجارب الأولى : بعد عدة سنوات ، حدثت مناسبتان جعلتاها تؤمن بأن طريق حياتها هو الخدمة في المستشفيات والعناية بالمرضى .. فقد مرضت جدتها لأمها فقامت برعايتها .. كما مرضت سيدة عجوز أخرى كانت تخدم في المنزل لمدة طويلة فقامت برعايتها هي الأخرى .. ثم بدأت ترعى المرضى الآخرين من أهالي القرية التي كانت تعيش فيها .

ومن هذه التجارب آمنت بأن « التمريض » أمر مقصور على النساء فقط .. ويجب على السيدة أو الفتاة التي تمارس التمريض أن تكون طيبة وعطوفة ولا تمل من مساعدة المرضى .. واقتنعت تمامًا بأن من واجبها أن تتعلم وتتدرب على الكيفية الصحيحة للتمريض .. ولذلك فقد طلبت من والديها أم يسمحا لها بالعمل في أحد المستشفيات القريبة .

وما إنْ أعلنت رغبتها في ان تصبح « ممرضة » حتى هبَّت عاصفة من التعاسة على أسرتها الثرية ، فقد استاء الأب ، وغضبت الأم التي وقع عليها هذا الخبر وقع الصاعقة .

• **المستشفيات في الماضي** : في سنة 1845 وما قبلها ، كانت المستشفيات من الأماكن المخيفة .. مملوءة بالقذارة والفوضى ، ومزدحمة بالمرضى والآلام ، وتنبعث منها روائح كريهة لا تطيقها الأنوف .. وكان المرضى من أفقر الفقراء ، ويدمنون شرب الخمور الرخيصة .. ويتصارعون ويتشاجرون ويصرخون إلى أن تتدخل الشرطة لفض المنازعات والمشاجرات وإقرار النظام .

أما الممرضات فكنَّ من أسوأ النساء .. وكلهن جاهلات لا يعرفن شيئًا عن التمريض ، بالإضافة إلى أخلاقهن السيئة وإدمانهن شرب الخمور الرخيصة طوال الوقت .

وبالرغم من ذلك كله، واصلت «فلورنس» عملها بالمستشفيات وتفرغت تمامًا لتلك الخدمة التي دعاها إليها صوت من السماء .. وواظبت على قراءة كل ما كانت تتوصل إليه من الكتب والتقارير الطبية .. وتعلمت من المرضى أعراض وصفات الأمراض التي كانوا يعانونها .

• **بداية تحقيق الأمل** : وبينما كانت الأسرة في زيارة لألمانيا ، ودون إذن من والديها ، عملت «فلورنس» في أحد المستشفيات لتزداد خبرة ومعرفة بأحوال المستشفيات وأحوال المرضى .

وفي ربيع عام 1853 ، دعيت «فلورنس» للإشراف على ملجأ للعجائز من النساء الفقيرات اللاتي لا يملكن أجر العلاج بالمستشفيات .. فأقبلت على

هذا العمل بكل همة ونشاط .. فبالإضافة إلى العناية بالمريضات ، كانت تقوم بتلبية طلباتهن العديدة المتنوعة ، وتقوم بإعداد الطعام ، وتسوية الأسِرَّة والفراش ، ووضع الفحم في المدفأة إلى آخر تلك الأعمال الشاقة .. ولكنها مع ذلك كانت راضية وسعيدة بحسن أدائها لتلك الرسالة .. فكانت تشع بهجة وأملًا ، وترتسم على وجهها ابتسامة عذبة حلوة ، وتحمل مشاعر الود للجميع .. ثم لاحت بعد ذلك ظروف جديدة ، جعلتها تشعر بأن تحقيق آمالها الكبرى قد أصبح قريب المنال .

- بداية حرب القرم : نشبت الحرب بين إنجلترا وروسيا .. وأرسل الجيش البريطاني إلى « القرم » على البحر الأسود لمحاربة الجيش الروسي .. وكان مقر قيادة الجيش البريطاني في قرية «سكوتاري» بالقرب من مدينة استانبول بتركيا .

وكان جرحى المعارك الحربية يعانون من سوء الرعاية الطبية ، وطلبت الحكومة البريطانية من «فلورنس» أن تقوم باختيار مجموعة من السيدات والآنسات اللاتي يرغبن في التطوع كممرضات ، وأن تقوم بتوجيههن الوجهة السليمة لأداء عملهن على خير وجه .. وقبلت «فلورنس» أن تقوم بتلك المهمة .

- تلبية النداء : كان هذا التكليف فرصة سانحة هيأتها السماء لكي تحقق «فلورنس» أهدافها .. فجمعت ثمانٍ وثلاثين سيدة كان بعضهن على دراسة بسيطة بأصول العمل ، وجميعهن تقدمن لهذا العمل ليحصلن على أجر أعلى من أجورهن في إنجلترا .. وبسرعة فائقة ، أعدت لهن ثيابًا خاصة موحدة الشكل ورمادية اللون ، وخالية من الجمال أو الشياكة .. وكانت هذه أول فرصة من ممرضات الآنسة « فلورنس نايتنجيل » .

- **في تركيا :** رحلت فرقة الممرضات إلى فرنسا عبر بحر المانش .. ثم أخذت القطار إلى جنوب فرنسا .. ثم ركبت سفينة متجهة إلى استانبول ، وكانت الرحلة البحرية مضنية حافلة بالمتاعب والعواصف .. وأخيرًا وصلت الفرقة إلى استانبول في الثالث من نوفمبر 1854 .. وشاهدت الممرضات مجموعة كبيرة من جرحى المعارك الحربية كانوا يعانون العذاب في المستشفى الميداني .
- **المستشفى في أسوأ حالة :** كل أرضياته محطمة ، وتنضح الرطوبة من كل حوائطه ، ولا توجد فيه مياه صالحة للشرب ، والصرف الصحي عاطل تمامًا وغير صالح .. وكان عدد الجنود الجرحى الذين يموتون بسبب الأمراض التي أصيبوا بها في هذا المستشفى ، أكثر من عدد الجنود الذين كانوا يموتون بسبب ما أصيبوا به من جروح في المعارك الحربية .

وبالرغم من برد الشتاء ، فقد كان المستشفى خاليًا من أي مؤن أو معدات أو مستلزمات ، ولا توجد به حتى الشوك والسكاكين والملاعق الخاصة بتناول الطعام.. وكان الجنود الجرحى متناثرين في كل أنحاء المبنى، ولا يشرف عليهم أحد على الإطلاق .

- **استقبال دون ترحيب :** تجاهل الأطباء وصول فرقة الممرضات ، وقرروا عدم التعامل معهن .. وصممت «فلورنس» من جانبها على عدم بدء العمل إلا بعد قبول الأطباء لوجودهن من ناحية المبدأ .. لأنها كانت مقتنعة بأن الممرضات لابد أن يعملن تحت إشراف الأطباء.. وأن الواجب الأول على كل ممرضة أن تقوم بتنفيذ أوامر الطبيب .

ومر أسبوع لم يفعلن فيه شيئًا سوى إعداد الأربطة وتجهيزها لتضميد الجروح ، بينما كان الجنود الجرحى لا يتلقون أي علاج .

وأخيرًا سمحوا « لفلورنس نايتنجيل » وفرقة الممرضات أن يدخلن إلى المطابخ ليشرفن على إعداد الطعام والتأكد من طهوه بطريقة مناسبة .. وكان هذا أول عمل قمن به في المستشفى .

- بداية العمل : ساءت الأحوال بعد أن التهب سعير الحرب ، وسقط آلاف من الجنود مرضى وجرحى .. ولم يجد الأطباء مناصًا سوى الاستعانة «بفلورنس» وفرقة الممرضات .. فبدأن العمل فورًا .. ولحسن الحظ ، وصل إلى «فلورنس» مبلغ كبير من المال من المتبرعين في لندن، فاستخدمته في رفع مستوى الخدمة والنظافة في المستشفى .

وهكذا بدأ الجنود الجرحى يشعرون بأنهم أصبحوا محل اهتمام ورعاية .

- الإشراف على تطبيق النظام : أصبحت «فلورنس» محل إعجاب وتقدير من جميع الجنود .. فقد استطاعت أن تجعلهم يكفون عن السبِّ ونطق الألفاظ القبيحة في أحاديثهم .. وجعلت بعضهم يكف عن شرب الخمر .. وعاونتهم وشجعتهم على الكتابة إلى أهاليهم في الوطن .. كما كانت تشجعهم على تحمل آلام أمراضهم وجروحهم .. بل وكانت تعلِّم الأميين منهم مبادئ القراءة والكتابة .. وحتى في أثناء الليل كانت تمر بين صفوف أسِرَّة الجنود المرضى والجرحى النائمين لتطمئن عليهم وهي «حاملة المصباح» الذي اشتهرت به .

- زيارة القرم : ذهبت «فلورنس نايتنجيل» إلى منطقة «بلاكافا» القريبة من ميدان المعارك الحربية في القرم لزيارة المستشفى الميداني هناك ، لتحسين أحواله كما فعلت في المستشفى الميداني في «سكوتاري» .. ولكن بعد فترة قصيرة من وصولها إلى منطقة «بلاكافا» سقطت مريضة بحمى خطيرة ..

وظلت راقدة أسبوعين بين الحياة والموت .. وحزن الجنود المرضى والجرحى الراقدون بمستشفى «بلاكافا» حزنًا شديدًا .. أما الجنود المرضى والجرحى الراقدون بمستشفى «سكوتاري» فقد أداروا وجوههم نحو الحائط ، وأخذوا يبكون ويدعون لها بالشفاء .. وعندما وصلت أخبار مرضها إلى إنجلترا استقبلها الشعب بأسف شديد .. إلى أن وصلت أنباء قرب تماثلها للشفاء ، فأصبح الناس يهنئون بعضهم بتلك الأنباء السعيدة.

- **الأوقات العصيبة** : ظهر «الفلورنس» أعداء في كل من المستشفى والجيش، بعد أن أضافت إلى أهدافها أهدافًا أخرى تتعلق بتحسين أوضاع الجنود العاديين .. فقد كان الضباط في بعض الأحيان يعاملون جنودهم كما لو كانوا من الحيوانات .. وكانت مثل هذه المعاملة تؤدي غالبًا إلى جعل الجنود يسلكون سلوكًا غير طيب ولا حميد .

- **مساعدة الجنود** : آمنت « فلورنس » بضرورة مساعدة جنود الجيش ، ليس فقط عندما يكونون مرضى أو جرحى ، بل وحين يكونون أصحاء أيضًا .. وكانت تؤمن بأن خدمة هؤلاء الجنود خارج المستشفى لا تقل أهمية عن خدمتهم داخل المستشفى .

وبالرغم من معارضة بعض الضباط الكبار ، افتتحت «فلورنس» ركنًا للقراءة والاطلاع .. واستخدمت بعض المدرسين لتعليم الأميين من الجنود مبادئ القراءة والكتابة .. وساعدت الجنود على تحويل جزء من مرتباتهم إلى عائلاتهم في إنجلترا ، بدلًا من إنفاقها على شرب الخمر .. كما ساعدت البعض منهم على تكوين فرقة للإنشاد والغناء .. وفرقة أخرى للتمثيل .. كما كوَّنت لهم فريقًا لكرة القدم .

وهكذا تحسنت صورة الجندي أمام نفسه وأمام زملائه وأمام ضباطه وأمام المجتمع ككل.. واختفت بالتدريج وبغير رجعة صورة الجندي السكير العربيد المستهتر .

وفي أبريل 1856، انتهت حرب القرم بين إنجلترا وروسيا.. ورحل الجنود عائدين إلى إنجلترا .. وبالتالي فقد استعدت «فلورنس نايتنجيل» للعودة إلى وطنها وبيتها ..

- العودة إلى البيت : كانت إنجلترا كلها ترغب في تكريمها ، عرفانًا بالجميل الذي أدته في خدمة عشرات الآلاف من الجنود وعائلاتهم .. ووضع بعضهم خطة لاستقبالها استقبالًا لائقًا ، تعزف فيه الموسيقى وتلقى فيه الخطب لتمجيدها وتمجيد مشاعرها النبيلة ، بل وأرادت الحكومة أن تتيح لها العودة على ظهر إحدى السفن الحربية البريطانية .

ولكن «فلورنس» لم تكن راغبة في كل ذلك .. وعادت إلى بيتها فجأة .. ودون أي احتفال .

- بعد الحرب: بعد السنتين اللتين قضتهما في «سكوتاري» أصبحت «فلورنس» في السادسة والثلاثين من عمرها .. ومع ذلك فقد كانت متعبة مرهقة منهوكة القوى ومريضة .. وكانت تفكر دائمًا في الأعمال الكثيرة التي تنوي القيام بها لتحسين أحوال الجنود أثناء خدمتهم بالجيش .. ولكن خاب ظنها في مساندة السلطات لها .. فآثرت الانزواء في بيتها .

- أهداف حياتها : وبالرغم من مرضها وضعفها العام ، فقد استمرت في زيارة المستشفيات .. ووضع الخطط لتحسين الخدمة ، ومساعدة المرضى والفقراء من الناس .. ومقابلة المسئولين في الحكومة لتقدم إليهم التقارير التي كانت تكتبها والحلول التي كانت تراها لإصلاح الأحوال .



وكان أهم هدفين في حياتها هما : تحسين أحوال الجنود العاديين بالجيش ، وتحسين أجور وأوضاع الممرضات ، وأن تجعل من التمريض مهنة جديرة بالاحترام .. وقد نجحت في تحقيق هذين الهدفين إلى حد كبير ، ليس في إنجلترا وحدها ، وإنما في بقية أنحاء العالم المتمدين .

وساهمت في إنشاء « معهد نايتنجيل لتدريب الممرضات » .. كما قامت بتأليف كتاب عن قواعد تدريب الممرضات .. وقد ترجم هذا الكتاب إلى عديد من اللغات الأوروبية .

- في أواخر أيامها : قضت «فلورنس مايتنجيل» بقية حياتها في العمل العام .. وكرّمها الملوك والملكات وكبار رجال الحكومة .. وكان الأطباء والجهات الطبية الحكومية يلجأون إليها ، ليحصلوا منها على المعلومات والإرشادات الخاصة بتشغيل المستشفيات وما تحتاجه من ممرضات .

أما الممرضات أنفسهن ، والفقراء من الناس الذين وهبت حياتها لخدمتهم ، فقد كانوا أسبق الجميع في الاعتراف بأفضالها وجمائلها .

وفي سنة 1910.. ماتت «فلورنس نايتنجيل» وكان عمرها تسعين سنة !.

* * *

(3) مـدام كـوري

ولدت « ماريا سكلودوفسكا » في مدينة وارسو عاصمة بولندا في سنة 1867م . وكان أبوها يعمل مدرسًا في إحدى مدارس البنين .. وكانت أمها ناظرة إحدى مدارس البنات .. ونشأت في بيت يملؤه الحب العائلي وحب الكتب والدراسة .

- **الخطر في حجرة الدراسة :** كانت بولندا واقعة آنذاك تحت الاحتلال الروسي .. الذي منع تدريس تاريخ بولندا وتدريس اللغة البولندية .. ومع ذلك فقد حرصت معظم المدارس البولندية على تعليم التلاميذ لغتهم الأصلية وتاريخ وطنهم .

وفي أحد أيام الدراسة جاء إلى الفصل مفتش روسي وألقى على «ماريا» عدة أسئلة، أجابتها كلها بلغة روسية سليمة.. فاطمأن المفتش وغادر المدرسة راضيًا مسرورًا .

- **طفولتها وصباها :** حين بلغت « ماريا » العاشرة من عمرها ماتت أمها الحنون فكانت صدمة شديدة وقعت عليها وعلى الأسرة كلها : الأب .. والأختين .. والأخ الأصغر ..

ويذلت الأخت الكبرى «برونيا» قصارى جهدها لتحل محل الأم في خدمة الأسرة ورعايتها وإحاطتها بالحب والحنان المفتقد بموت الأم .. أما «ماريا» فقد دفنت أحزانها في الانغماس في مذاكرة دروسها وقراءة الكتب وتثقيف نفسها .

وكان أبوها لا يكسب من مهنته ما يفي بتكاليف الأسرة على نحو طيب معقول .. لذلك فحين بلغت «ماريا» السابعة عشرة من عمرها ، اضطرت أن تقوم بإعطاء الدروس الخصوصية للتلميذات الصغيرات لكي تكسب ما تساعد به أسرتها .

- **الجامعة العائمة :** وهي جامعة على شكل تنظيم سري ، مكونة من فريق كبير من الشبان والشابات الذين كانوا يرغبون في مواصلة التعليم العالي ، وهو التعليم الذي حرَّمته السلطات الروسية على البولنديين تحريمًا قاطعًا .. وكان على الطلبة المنضمين إلى تلك الجامعة أن يضموا إليهم مزيدًا من الطلبة والطالبات الآخرين ، ويقوموا بتعليمهم ما تلقوه من دروس ومحاضرات ، وذلك حتى تتسع القاعدة العريضة من الشباب الراغب في خدمة مستقبل وطنه بولندا .

- **ماريا وأختها برونيا :** كانت «برونيا» تحلم بالذهاب إلى باريس لدراسة الطب ، غير أن ما ادخرته من مال كان لا يكفيها لمواصلة الدراسة التي ستستغرق عدة سنوات ، لذلك فقد وعدتها «ماريا» أن ترسل إليها كل ما سوف تستطيع أن تدخره من النقود ، ولذلك فقد اضطرت «ماريا» أن تعمل كمربية أطفال لكي تحصل على المال اللازم لمساعدة أختها التي سافرت إلى باريس في خريف عام 1885م .

- **مربية الأطفال** : حصلت ماريا على وظيفة مربية أطفال في أحد البيوت الكبيرة في منظمة ريفية تبعد عن مدينة وارسو بنحو ستين ميلًا . وفي هذا البيت بدأت عملها في رعاية فتاة صغيرة عمرها نحو عشر سنوات .

وخلال إقامتها في هذا البيت لم تنقطع عن قراءة الكتب ، بل ونذرت من وقتها ساعتين كل يوم كانت تقوم فيهما بتعليم مجموعة من الأطفال الفقراء من أبناء أهالي تلك المنطقة الريفية ، مبادئ قراءة وكتابة اللغة البولندية .

- **قصة حب** : كان الابن الأكبر للأسرة التي تعمل ماريا في بيتها شابًا ذكيًا ، رأى في ماريا جمالًا وذكاءً وثقافة وذوقًا رفيعًا وأخلاقًا طيبة عالية ، ولذلك فقد وقع في حبها وأعلن رغبته في الزواج من تلك الفتاة العظيمة ، ولكن والديه رفضا هذا الزواج رفضًا قاطعًا . وعرفت ماريا طعم الحزن بعد هذه الصدمة ، ولكنها مع ذلك واصلت عملها كمربية أطفال لتتمكن من إرسال نصف أجرها الشهري إلى أختها التي تتعلم في باريس ، ولتساعد أخاها الأصغر لكي يواصل تعليمه .

- **العودة إلى وارسو** : قضت ماريا ثلاث سنوات مرهقة في العمل كمربية أطفال، وكادت تفقد الأمل تمامًا في مستقبلها.. ولكن لحسن الحظ، التحق أبوها بعمل يدر عليه دخلًا أكبر ، فطلب منها العودة إلى وارسو لتعيش معه .. والتحقت ماريا على الفور « بالجامعة العائمة » وبدأت دراستها السرية لعلوم الطبيعة .

وابتسم الحظ مرة أخرى حين استلمت خطابًا من أختها برونيا ، تخبرها فيه بأنها قد تزوجت ، وتدعوها بالتالي للقدوم إلى باريس لتعيش معها ومع زوجها ولتتمكن من مواصلة دراستها .

- الرحيل إلى باريس : وفي خريف عام 1891 ، انطلق بها القطار من وارسو إلى باريس عبر ألمانيا .. وببداية هذه الرحلة الطويلة خرجت ماريا من فلول الظلام إلى الأضواء الساطعة ، وبدأت أولى خطواتها في أن تصبح من النساء الشهيرات في العالم .
- بيتها في باريس : التحقت ماريا بأشهر جامعة فرنسية لدراسة علوم الطبيعة . واستأجرت حجرة صغيرة في سطح بيت متواضع لتعيش فيها . ولم يكن بتلك الحجرة إلا نافذة صغيرة يتسلل منها ضوء النهار .. وسرير صغير ، ومقعد واحد ، ومنضدة ، وحوض صغير للغسيل والاستحمام ، وموقد للطبخ ، ومصباح صغير يضاء بالزيت .. وهكذا استغرقت هذه الطالبة المجدة بكل كيانها في العلم والدراسة ، لدرجة كانت تبدو معها وكأنها فقدت إحساسها بالجوع أو إحساسها ببرد الشتاء .. وكانت تقضي أيامًا لا تتناول فيها من الطعام شيئًا سوى قطع من الخبز والزبد وبعض أكواب الشاي .. لذلك فقد أصيبت بالهزال .
- الجوع والبرد : كانت ترى أن السعادة كامنة في الانغماس في العمل والمذاكرة .. وحين كانت تواصل عملها في حجرتها المتواضعة طوال الليل. كانت تنسى كل شيء إلا العلم، والعلم وحده.. وفي بعض الأحيان، كانت تتصور نفسها زميلة لكبار العلماء الذين عاشوا في الماضي ، والذين كانت تعرف عنهم أنهم كانوا مثلها منصرفين إلى العلم بكل كيانهم ، وأنهم كانوا منفصلين عما كان يدور حولهم من شئون حياتهم الشخصية ، وأن اهتمامهم كله كان منحصرًا في العلم والبحث والمعرفة .

لذلك فقد كانت تنسى في بعض الأحيان أن تتناول طعامها ، بل وكانت تعجز في بعض الأحيان عن شراء ما تحتاجه من طعام .. كما أن ليالي باريس



الباردة قد هدَّت جسمها .. وفي كثير من الأحيان كانت تعجز عن شراء بعض الفحم للتدفئة .

- زواجها : اندهشت ماريا كثيرًا حين لاحظت أنها بدأت تهتم كثيرًا بزميل لها يدعى «بيير كوري» .. وكان عالمًا فرنسيًّا يقضي معظم أوقاته في إجراء التجارب العلمية بمعامل الجامعة .. وربط بينهما العمل في المعامل برباط وثيق ، بدأ باحترام كل منهما للآخر ، ثم إعجابه ، ثم صداقته ، ثم الوقوع في حب عميق جعلهما يشعران بأن كلًّا منهما لا يستطيع أن يستغني عن الآخر .. وفي عام 1895م تزوجا .

وأصبحت ماريا مسئولة عن أداء واجباتها المنزلية في بيت الزوجية ، ومع ذلك فقد كان الزوجان يقضيان في المعمل نحو ثماني ساعات يوميًّا ، وكانا يشعران أن هذا الوقت غير كافٍ لمواصلة إجراء تجاربهما .. وحين كانا يعودان إلى البيت كانا يجلسان إلى طرفي المنضدة ، وبينهما مصباح يعمل بالزيت ويشع نورًا خافتًا ولكنه يكفيهما لمواصلة القراءة .. وحتى الساعة الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل ، لا يسمع في حجرتهما أي صوت سوى صرير القلم ، وحفيف صفحات الكتب .

وبعد نحو سنتين رزق الزوجان بأول أطفالهما ، وكانت بنتًا سمياها «إيرين» .. وقد حصلت هذه البنت فيما بعد على جائزة نوبل !

- في المعمل : وبالرغم من حرصها الشديد على أداء واجباتها المنزلية ورعاية ابنتها ، حرصت « مدام كوري » في الوقت نفسه على مواصلة تجاربها العلمية لكي تتوصل إلى معرفة سر « النشاط الإشعاعي » الذي يصدر عن مادة « اليورانيوم » .. واضطر زوجها إلى ترك جميع أبحاثه وتجاربه المعملية لينضم إليها وليعاونها في البحث عن هذا « الإشعاع المجهول » .

وفـي عـام 1898م ، أعلنا أن هناك شيئًا في الطبيعة يسمـى « النشاط الإشعاعي » .. يصدر عن مادة مازالت مجهولة أطلقا عليها اسم «راديوم» .. وقضى الزوجات السنوات الأربع التالية في إجراء التجارب العلمية ليل نهار، غير عابئين بحرِّ الصيف أو برد الشتاء ، ولا بماء المطر الذي كان يتساقط عليهما كلما أمطرت السماء فوق سقف المعمل الفقير الذي يجريان فيه تجاربهما العلمية .

- **النجاح :** وفي مساء أحد الأيام في عام 1902 ، دخل الزوجان إلى معملهما المظلم ، فشاهدا ضـوءًا أزرق خافتًا يشـع من بعـض أنابيـب الاختبار الموضوعة على بعض المناضد .. لقد توصل الزوجان أخيرًا إلى السر الذي كانا يبحثان عنه كل هذه السنوات الطويلة .. « الراديوم » !

وبمجرد إعلان نبأ اكتشاف « الراديوم » ذاعت شهرة الزوجين باعتبارهما من كبار العلماء الذين أماطوا اللثام عن أحد أسرار الطبيعة . ولكن الزوجين كانا زاهدين في تلك الشهرة ، ولا يسعيان إلى تحقيق الأمجاد الشخصية .. كانا يريدان فقط أن يواصلا سعيهما إلى مزيد من الاكتشافات العلمية الجديدة .. وكانا يتمنيان أن تهيئ لهما أية جهة معملًا مناسبًا مجهزًا بجميع الأدوات والمستلزمات العلمية التي تساعدهما على إجراء المزيد من التجارب .

- **جائزة نوبل :** وفي العام نفسه ، منح الزوجان جائزة نوبل للعلوم الطبيعية، ولكنهمـا لم يستطيعا السفر إلى السـويد لاسـتلام الجـائزة بسبب انهماكهما الشديد في إلقاء المحاضرات وفي إجراء التجارب العلمية بمعملهما .

ثم حدث اكتشاف علمي مثير آخر ، فقد تبين أن « الراديوم » يصلح علاجًا لمرض من أخطر الأمراض التي تصيب الإنسان، وهو مرض السرطان.

ولكن المشكلة هو أن إنتاج « الراديوم » على نطاق واسع يحتاج إلى أموال طائلة .. وكانت هناك عدة جهات علمية عالمية على استعداد لمنح الزوجين ولكنهما ترفعا عن هذا العرض ، وعن المتاجرة بسر اكتشافهما العلمي المبهر .. وأعلنا هذا السر لكل علماء العالم .

- **الشهرة والأطفال** : ورزق الزوجان بطفلة ثانية سمياها « إيف » .. واضطرت مدام كوري أن تقسم أوقاتها بين ممارسة وظيفة الأم وربة البيت ، وممارسة واجباتها كعالمة كبيرة من أشهر علماء العالم . وواصل الزوجان أبحاثهما العلمية وحياتهما السعيدة المثمرة .

- **موت بيير كوري** : وفي يوم 19 إبريل 1906 ، بينما كان بيير كوري يسير في أحد شوارع باريس المزدحمة ، انزلقت قدمه في مياه المطر فسقط على الأرض ، وداست عليه عجلات إحدى العربات الثقيلة المسرعة ، فمات على الفور ، وانتهت بذلك حياة العالم الكبير . وكانت صدمة قاسية على زوجته وشريكته في العلم والحياة .

وصدر قرار من الجامعة بتعيينها في نفس وظيفة الأستاذ التي كان يشغلها زوجها قبل موته .. وهكذا بدأت مدام كوري في إلقاء محاضراتها العلمية من نفس النقطة التي توقف عندها زوجها في آخر محاضرة ألقاها .

- **الحرب العالمية الأولى** : وفي عام 1911 منحت مدام كوري جائزة نوبل مرة أخرى .. وفي عام 1914 تم إنشاء المعهد العلمي الفرنسي الذي ساعدها كثيرًا على إجراء تجاربها وأبحاثها العلمية الجديدة .. ولكن الحرب العالمية الأولى نشبت في ذلك العام .. وكان اكتشاف أشعة « إكس » واختراع الأجهزة الخاصة بتحضيرها قد تم منذ فترة بسيطة .. وبفضل مدام كوري

ومعاونتها ، وضعت المئات من تلك الأجهزة في مئات المستشفيات في طول فرنسا وعرضها ، بل وجهزت بها أيضًا بعض السيارات ليمكن نقلها من مكان إلى مكان حسب الحاجة .. وقد أطلق على هذه السيارات اسم لطيف هو « سيارات كوري الصغيرة » .. وكثيرًا ما كانت تشاهد مدام كوري وهي تقود إحدى هذه السيارات بنفسها .

- **هدية الشعب الأمريكي** : وبالرغم من كل هذا العطاء والجهد العلمي الجبار، وبالرغم من أنها قد أهدت اكتشافها إلى العالم والإنسانية بلا مقابل، فقد كانت تحتاج إلى جرام واحد من «الراديوم» لكي تواصل تجاربها وأبحاثها لخدمة العلم والتقدم .. ولكنها فقيرة لا تستطيع أن تشتري هذا الجرام .

وقد استطاعت إحدى صديقاتها الأمريكيات أن تجمع التبرعات من الشعب الأمريكي لشراء جرام « الراديوم » المطلوب .. وسافرت مدام كوري إلى أمريكا ، وقام الرئيس الأمريكي بإهدائها « الراديوم » باسم الشعب الأمريكي كله .

ولكن مدام كوري اشترطت أن يكون إهداء هذا « الراديوم » إلى المعمل العلمي الذي تعمل فيه بباريس . واضطر الأمريكيون إلى تغيير نص وثيقة الملكية ليصبح هذا « الراديوم » مملوكًا للمعمل وليس مملوكًا لها .

- **سنواتها الأخيرة**: ومرت سنوات طويلة وهي تعمل بنفس الهمة والنشاط، ولكنها كانت تزداد ضعفًا يومًا بعد يوم .. وبالرغم من ذلك فقد زارت بولندا .. وطنها الذي أحبَّته وخدمته عدة مرات .. واستمرت في إجراء تجاربها العلمية وأصبح لها مساعدون وتلاميذ يحبونها ويقدرونها أعظم تقدير .

ولكن صحتها أصبحت تزداد سوءًا ومرضًا وضعفًا .. وحار الأطباء في معرفة هذا المرض ، إلى أن اكتشفوا أن المرض ناتج عن تعرضها للنشاط الإشعاعي الذي كان يصدر من « الراديوم » الذي اكتشفته ، والذي حقق لها كل هذا الصيت والنجاح العظيم ، والذي كان في الوقت نفسه يدمر خلايا جسمها .

وفي 4 يوليو 1934 ماتت مدام كوري .. العالمة العظيمة التي اكتشفت «الراديوم» .. والتي بفضلها تم استخدام هذه المادة في علاج بعض الأمراض الخطيرة .. وفي تحسين تنمية النباتات والحيوانات .. وبفضلها أيضًا تيسرت سبل البحث العلمي لدراسة الفضاء الكوني فيما وراء الشمس والنجوم .. ودراسة قياس أعمار بعض المخلفات أو الأشياء التي كانت موجودة منذ ملايين السنين .. ودراسة العلوم الذرية سواء استخدمت لأجل الأعمال الحربية أو للأعمال السلمية .

* * *

(4) أبراهان لينكولن

- **مولده :** كان والداه يعيشان في كوخ بسيط مشيد بجذوع الأشجار في قرية صغيرة بولاية « كنتكي » .. وفي هذا الكوخ ولد لهما طفلان ، الأول كان بنتًا سمياها «سارة» .. أما الثاني فكان ولدًا سمياه «أبراهام » .

والتحق الغلام الصغير بمدرسة فقيرة تتكون من حجرة واحدة بلا نوافذ وتبعد عن بيته نحو أربعة أميال .

وفي سن السابعة ، رحلت الأسرة إلى أرض جديدة وأقامت لنفسها كوخًا صغيرًا من جذوع الأشجار ، وكان الطفل «أبراهام» ينام في مكان بأعلى الكوخ على فراش من أوراق الشجر .. وكانت هذه الأسرة الفقيرة تعتمد في طعامها على لحم الحيوانات البرية التي يتمكن الأب من اصطيادها، كما كانت تعتمد في ملابسها على ما يصنعونه من ثياب من جلود تلك الحيوانات.

وعندما بلغ «أبراهام» الحادية عشرة من عمره ، مرضت أمه وماتت .. وتزوج أبوه من أرملة طيبة مات زوجها بعد أن ترك لها ثلاثة أطفال ، ولدين وبنتًا .

- **المدرسة والكتب :** التحق « أبراهام » بالمدارس في ثلاث مراحل مختلفة من حياته ، المرة الأولى حين كان في السابعة من عمره .. والمرة الثانية حين كان

في الرابعة عشرة .. والمرة الثالثة حين بلغ السابعة عشرة .. وكان يقضي في المدرسة في كل مرة فترة قصيرة لا تتعدى أشهرًا قليلة .. وكان مجموع ما قضاه في فصول تلك المدارس لا يزيد على اثنى عشر شهرًا .

ولكنه كان شغوفًا بالعلم والمعرفة .. وكان يستعير الكتب من الجيران الذين يعيشون بالقرب من بيته .. وينكب على قراءة تلك الكتب بنهمٍ شديد .. وكان يقول دائمًا : « إن كل ما أريد معرفته موجود في الكتب ، وخير صديق لي هو من يقرضني كتابًا أقرؤه » .

- مغادرة البيت : كان «أبراهام» يتميز بقوة جسمانية هائلة ، وفي سن الحادية والعشرين ، رحلت الأسرة إلى أرض جديدة بولاية « ألينوي » .. وعاش مع الأسرة فترة قصيرة حتى عاونها في إقامة المأوى الجديد .. ثم قرر أن ينفصل عن الأسرة ليبدأ خطواته الجديدة في هذه الحياة .. باحثًا عن عمل في مدينة « نيو أورلينز » .. وهي أول مدينة كبيرة يراها «أبراهام» في حياته.

- العبيد في نيو أورلينز : رأى «أبراهام» عملية تجارة العبيد في أسوأ صورها .. وقد أثر ذلك في فكره ومشاعره الإنسانية تأثيرًا شديدًا ظل يلازمه طوال حياته .. كان يستمع متألمًا إلى المفاوضات التي تتم بين البائعين والمشترين ، وكأنهم كانوا يتقاضون في بيع حصان أو أي حيوان آخر .. فكان يشمئز من سماع تلك المفاوضات والمجادلات حول بيع وشراء الإنسان .

ثم انتقل «أبراهام» إلى إحدى المدن الصغيرة ، ووجد عملًا كبائع في مخزن صغير للحاجيات .. واشتهر بين جميع الناس بقوته وأمانته وقلبه الطيب الرحيم ، وأطلق عليه الناس اسم « الأمين » .

• **كتاب غيَّر مجرى حياته :** وفي تلك المدينة الصغيرة ذاعت شهرة «أبراهام لينكولن» كمصارع قوي ، واختاره أهل المدينة ليقود معركة ضد فرقة من الهنود الحمر كانت تنوي الهجوم على المدينة .. ولكن المعركة لم تحدث .. ثم اشترى متجرًا للبيع والشراء ولكن هذا المشروع باء بالفشل بسبب انشغال «أبراهام» بالقراءة طوال الوقت .. وفي أحيان كثيرة كان يقوم بوزن السكر أو الدقيق لأحد الزبائن بيد واحدة ، أما يده الأخرى فتظل ممسكة بكتاب لا يرفع عينه عن صفحاته .

وفي يوم ما عثر «أبراهام» على كتاب قديم في قاع برميل كان قد اشتراه بنصف دولار من أحد الزبائن .. وكان كتابًا في القانون لا يستغني عنه المحامون .. وقرأ «لينكولن» هذا الكتاب بكل الشغف وكل التركيز .

• **لينكولن صانع القانون :** وفي سنة 1834 انتخبه الأهالي من الفلاحين والناس البسطاء ليكون ممثلًا لهم ، وذلك باعتباره شخصًا بسيطًا مثلهم ، يمكنه أن يتفهم مطالبهم وآمالهم ويستطيع أن يرفع صوتهم إلى حكومة الولاية .

وخلال السنوات الثماني التي قضاها «لينكولن» كعضو منتخب في حكومة الولاية ، كان يدرس القانون ليل نهار . وبعد انقضاء تلك السنوات ، رحل إلى مدينة «سبرنج فيلد » بولاية إلينوي .. وهناك التحق بمكتب أحد المحامين الكبار .. وبدأ ممارسة مهنة المحاماة .. وكان عمره أيامئذ نحو تسع وعشرين سنة .. ولم يكن في جيبه أكثر من سبعة دولارات .

• **لينكولن المحامي :** وظل يعمل بالمحاماة على مدى خمس وعشرين سنة متواصلة ، عرف خلاله بأنه المحامي الأمين الذي لا يتكلم إلا بالحق ولا

يسعى إلا لتحقيق العدل .. وبالتالي فقد ذاعت شهرته في كل أنحاء الولاية.

- مسألة العبيد: كان نظام استخدام العبيد مسموحًا به في الولايات الجنوبية، وغير مسموح به في الولايات الشمالية .. وفي ذلك الزمن كان المهاجرون يتدفقون في أعداد كبيرة نحو الغرب، وأخذوا يهيئون الأرض للزراعة على نطاق واسع، وينشئون العديد من القرى والمدن والولايات الجديدة. وانقسمت آراء الناس في مسألة استخدام العبيد في تلك الولايات المتحدة.

وكان «ستيفن دوجلاس» أحد القادة الكبار في الولايات المتحدة الأمريكية .. وكان شخصًا ذكيًا يتمتع بشخصية قوية وبقدرة فائقة على الخطابة، وكان محل إعجاب الجماهير الأمريكية، ولذلك فقد رشح نفسه ليكون رئيسًا للولايات المتحدة .. وحاول في خطبه إرضاء سكان الولايات الجنوبية وإرضاء سكان الولايات الشمالية في الوقت نفسه، ولكنه لم ينجح في إرضاء هؤلاء ولا أولئك.

وانبرى له «أبراهام لينكولن» معلنًا أن نظام العبودية نظام كريه وغير إنساني .. ويجب عدم السماح به في الولايات الغربية .. وألقى عديدًا من الخطب يقول فيها « يجب إطلاقًا ألا يتحكم الإنسان في أخيه الإنسان دون رغبة هذا الأخير وموافقته ».

وقد انقسم الناس حيال هذين الخطيبين. وعندما أجريت انتخابات الرئاسة سنة 1860 انتصر «أبراهام لينكولن» ذلك المحامي الريفي البسيط الذي لم يكن معروفًا منذ سنوات قليلة، وأصبح رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية.

• الحرب الأهلية : تولى « لينكولن » رئاسة الولايات المتحدة في أصعب الظروف .. فقد كانت هناك سبع ولايات جنوبية أعلنت انفصالها عن الاتحاد واختارت لنفسها رئيسًا آخر ، لأن هذه الولايات كانت تعتمد على نظام استخدام العبيد ، وهو نظام كانت تعارضه الولايات الشمالية .. وكان معنى ذلك أن الدولة كلها ستنهار ولن تكون هناك أمة أمريكية موحدة .

وبدأت الحرب الأهلية بين الولايات الجنوبية والولايات الشمالية .. وكانت حربًا مريرة استمرت لمدة أربع سنوات سقط فيها قتلى بمئات الآلاف من شباب الفريقين المتحاربين .. وكان الرئيس «لينكولن» يدير الأمور في مقره في البيت الأبيض وقلبه مفعم بالحزن العميق ، ولكنه كان ثابت الجأش، ويثق تمامًا في أن السلام سيعود ، وستعود الولايات المتحدة الأمريكية دولة موحدة .

ولكن بعض ضباط الجيش الشمالي من الذين يريدون تطبيق القواعد العسكرية الصارمة ، كانوا يعيبون على الرئيس رقة قلبه وأحكامه الرحيمة على الجنود والضباط الذين كانوا يرتكبون مخالفات عسكرية .

• تحرير العبيد : وبينما كانت الحرب دائرة .. وقَّع «أبراهام لينكولن» على وثيقة في غاية الأهمية ، أعلن فيها تحرير جميع العبيد في الولايات المنفصلة التي أعلنت الحرب على الاتحاد .. وكان معنى هذا القرار هو إعلان تحرير نحو ثلاثة أو أربعة ملايين من العبيد عند انتهاء الحرب لصالح الاتحاد .



وفي سنة 1864 أعيد انتخاب « لينكولن » رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية للمرة الثانية .. وكانت هناك بوادر تؤكد قرب انتهاء الحرب بانتصار جيش الولايات الشمالية .. وبطبيعة الحال فقد كان له أعداء كثيرون بسبب دعوته إلى تحرير العبيد وبسبب انتصاره على الولايات الجنوبية .

وفي مساء 14 أبريل 1865 ، ذهب الرئيس «أبراهام لينكولن» ومعه زوجته إلى أحد المسارح في واشنطن .. وبينما كان الرئيس يشاهد العرض دخل إلى مقصورته شاب جنوبي اسمه « جون ثوب » وصوّب مسدسه إلى رأس الرئيس من جهة الخلف وأطلق النار .. فخرَّ الرئيس قتيلًا .. وحزن الأمريكيون جميعًا لمصرع هذا الرجل العظيم ، الذي بدأ حياته في كوخ مشيد بجذوع الأشجار ، وانتهت حياته وهو يعيش في البيت الأبيض .

* * *

(5) البرت شفايتزر

- مَنْ هو : في وسط أفريقيا .. عاش أحد الأطباء الأوروبيين العظام .. وكان عمره قد تجاوز الثمانين عامًا قضى معظمها في العمل وسط أهالي أفريقيا .

كان هذا الطبيب يعتبر أفريقيا وطنه الثاني .. وقد عاش حياة عظيمة غير عادية ، تستهوي قصتها الملايين من الناس من كل جنس وكل دين ، وفي جميع أنحاء العالم .

- مولده : ولد «ألبرت» في قرية صغيرة اسمها «جونزباخ» بإقليم «الألزاس» الذي كان تابعًا لألمانيا في ذلك الوقت .. وكان أبوه قسيسًا في كنيسة القرية.. ومنذ صغره عرف « ألبرت » بأنه «الجنتلمان الصغير» .. وفي أحد الأيام دخل في مصارعة مع صديق له اسمه «جورج» وانتصر عليه «ألبرت» بسهولة .. وعندئذ قال الصديق المهزوم : « إنك قوي ؛ لأنك لا تشعر بالجوع مثلنا .. ولو كان يتاح لي أن أشرب حساءً ولو مرتين في كل أسبوع لأصبحت قويًا مثلك ! » .

- في صباه عرف الرحمة : وقد تأثر «ألبرت» بتلك الكلمات طوال عمره .. فأصبح يعطف على الفقراء وعلى الضعفاء وعلى الحيوانات والطيور وكل ما تدب فيه الحياة من مخلوقات الله ، لدرجة أنه كان يتحاشى لبس الملابس

الجديدة حتى لا يجرح مشاعر زملائه من التلاميذ الفقراء في المدرسة التي كان يتعلم فيها . وفي صباه أيضًا تعلم الموسيقى .. وظل مواظبًا على عزف الموسيقى طوال عمره ، حتى بعد أن دخل الجامعة .. كما يهوى قراءة الكتب والمراجع باهتمام شديد .

- **القرار العظيم** : وعندما بلغ الحادية والعشرين من عمره ، اتخذ «ألبرت» قرارًا يحدد فيه مستقبل حياته .. وذلك بأن يظل حتى الثلاثين من عمره متفرغًا لدراسة العلوم والموسيقى ، ثم يهب بعد ذلك حياته كلها لخدمة الآخرين .

وخلال السنوات التسع التالية أكمل تعليمه الجامعي ، وبدأ يؤلف بعض الكتب العلمية ، كما ألف كتابين عن الموسيقار الألماني « باخ » .. وأخذ يلقي المحاضرات في جامعة « ستراسبورج » بل وأصبح عميدًا لأحد كليات تلك الجامعة ، كما أصبح قسًّا في إحدى الكنائس ، كما حرص على مواصلة العزف على آلتي البيانو والأرغن بانتظام .

- **دراسة الطب** : كان « ألبرت » قد انضم إلى مجموعة من الشبان والشابات جعلوا أنفسهم في خدمة الفقراء ومساعدتهم . وقد تعرف على إحدى الشابات من ضمن أعضاء هذه الجماعة وعقد معها أواصر الصداقة ثم تزوجها فيما بعد .

وفي سن التاسعة والعشرين ، قرأ في إحدى الجرائد مقالًا يصف الحالة البائسة التي يعيش فيها قبائل الزنوج من سكان الكونجو ووسط أفريقيا ، حيث ينتشر الجوع والمرض ، وحيث توجد مناطق شاسعة تمتد مئات الأميال لا يوجد فيها طبيب واحد .

وفي تلك الأمسية اختار « ألبرت شفايتزر » هدف حياته المستقبلية ، وهو ضرورة الذهاب إلى أفريقيا ليساعد أهلها .. وما دام الأفريقيون يحتاجون الرعاية الطبية ، فلابد أن يذهب إليهم كطبيب ليعالج أمراضهم ! .. ولذلك فقد قرر أن يدرس الطب فورًا .

وعلى مدة السنوات الخمس التالية ، انغمس « شفايتزر » في دراسة الطب .. ثم قضى سنة أخرى للتدريب في أحد المستشفيات .. ولجمع النقود والتبرعات اللازمة للمستشفى الذي ينوي إقامته في أفريقيا .

- **الوصول إلى أفريقيا** : وفي ربيع عام 1913 استقل « ألبرت شفايتزر » وزوجته ظهر سفينة رحلت بهما إلى سواحل غرب أفريقيا ، ورست في ميناء صغير يقع عند مصب نهر «أوجو وي».. ومن هناك استقل الزوجان قاربًا نهريًا حتى وصلا إلى القرية التي اختارها «شفايتزر» لإقامة مستشفاه .. وكانت قرية صغيرة تسمى « لامباريني » .

وسرعان ما انتشرت في أرجاء الغابات المحيطة الأنباء السارة بوصول أحد الأطباء إلى تلك القرية .. فتجمع المرضى من كل صوب .. قادمين نحو القرية زرافات ووحدانا .. عشرات من الأفريقيين الذين يعيشون في أعماق الغابات ، من الشيوخ والنساء والرجال والشبان والشابات والأطفال الصغار والأطفال الرضع .. وكانوا جميعًا يعانون من أمراض عدة ، بسبب الجو غير الصحي وسوء التغذية وقلة الطعام الذي يتناولونه .

وكانت زوجته تقوم بأعمال التمريض إلى جانب قيامها بأعمال البيت .. كما استعان «شفايتزر» برجل طيب من المواطنين المحليين اسمه «جوزيف» ، وكان رجلًا مخلصًا وأمينًا يعرف لغات الأهالي المحليين ويترجمها إلى الفرنسية لكي يتعرف الطبيب على ما يشكو منه مرضاه .



- **العمل في المستشفى** : استمر العمل في المستشفى لسنوات طويلة .. وكان العمل يتحسن باستمرار بفضل المساعدات والتبرعات التي كان يرسلها أصدقاء «شفايتزر» في باريس .. أما الأهالي المحليون فقد أحبوا طبيبهم الذي كان يرعاهم ويعطف عليهم ، وأطلقوا عليه اسم «أوجاندا» ومعناه الساحر القديم ، لأنهم كانوا يعتبرون العلاج من الأمراض ضمن أعمال السحر .

- **الحرب العالمية الأولى** : وفي سنة 1914 نشبت الحرب العالمية الأولى .. وقامت قوات الاحتلال الفرنسية بوسط أفريقيا بأسر « ألبرت شفايتزر » وزوجته باعتبارهما من مواليد إقليم « الألزاس » الذي كان تابعًا لألمانيا عدوة فرنسا .. وتنفيذًا لأوامر الجنود الفرنسيين ، لزم « شفايتزر » بيته لا يبرحه .. ووجد الفرصة التي كان يبحث عنها منذ زمن طويل ، فألف كتابًا عن « معنى الحياة » صبَّ فيه عصارة فكره وروحه الطيبة .

وفي خريف عام 1917 نقله الفرنسيون إلى فرنسا .. ووضعوه في أحد معسكرات الاعتقال، إلى أن تم الاتفاق بين ألمانيا وفرنسا على تبادل الأسرى، فأطلق سراحه هو وزوجته فعادا إلى قريتهما الصغيرة « جونزباخ » بإقليم «الألزاس» .

وكان في وسع « ألبرت شفايتزر » أن يحصل على عمل جيد في أوروبا .. ككاتب أو طبيب أو عازف موسيقي أو أستاذ محاضر في أرقى الجامعات ، ولكنه ترك هذا كله ، وقرر العودة مرة أخرى إلى أفريقيا ليكمل رسالته التي يؤمن بها ، وهي معالجة الأهالي الفقراء .

- في أفريقيا مرة أخرى : وعاد « شفايتزر » مرة أخرى قرية «لامباريني».. وكان يصاحبه طبيب شاب ليساعده في أعمال المستشفى الذي كان ينوي توسيعه هذه المرة .

وبالفعل توسع المستشفى وازداد عدد حجراته وكثر عدد المرضى وعدد العاملين فيه .. وذلك بفضل الرحلات التي كان يقوم بها «شفايتزر» إلى أوروبا .. ليزور عدة أقطار أوروبية ليلقي الأحاديث والمحاضرات ، وليعزف على الأرغن في الحفلات العامة .. وكان يقوم بكل هذا النشاط ليجمع النقود اللازمة للوفاء باحتياجات المستشفى في قرية «لامباريني» .

واستمر العمل في المستشفى لسنوات طويلة .. وفي عام 1947 أصبح عدد الأسرَّة في المستشفى ثلاثمائة وخمسين سريرًا ، وأصبح يعمل فيه عدد كبير من الأطباء المتحمسين ومجموعة كبيرة من الممرضات الأوروبيات ، كما تخصص الدكتور « شفايتزر » في علاج مرضى الجذام وهو مرض خطير .

وأصبحت « لامباريني » الآن مركزًا طبيًّا يقدم العلاج والخدمات الطبية لعدة آلاف من المرضى.. أما الرجل العظيم «ألبرت شفايتزر» فقد حصل على جائزة « نوبل » وكرمته العديد من الجامعات والحكومات .. وحازت كتبه ومؤلفاته في الموسيقى والعقيدة وفلسفة الحياة على شهرة واسعة في مختلف أنحاء العالم .. كما اعتبر واحدًا من أعظم عازفي الأرغن .

كان يتمتـع بروح نبيلـة تدفعـه دفـعًا لتقديم خدمـاته لكـل الضعفـاء والمحتاجين ، ولتبث فيهم نور الأمل بلا مقابل سوى إحساسه بالرضا حين يرى جهوده في خدمة الناس قد تكللت بالنجاح .

وفي سنة 1965 .. وفي قرية «لامباريني» .. مات « ألبرت شفايتزر » الذي اعتبره الناس واحدًا من أعظم الرجال في هذا العصر .

* * *

الفضيلة أو بول وفرجيني

PAUL ET VIRGINIE
PAR: JACQUES HENRI BERNARDIN DE SAINT PIERRE

ما أنا إلا رجل بائس مسكين ، أخطأتني السعادة حين طلبتها في مدن فرنسا وحواضرها ، فشددت رحالي إلى إحدى المستعمرات الفرنسية النائية، لعلي أجد فيها طيفًا من السعادة ، ولو بين القفور الموحشة أو بين الهضاب والصخور الجرداء .

هكذا رحلت إلى جزيرة « موريس » وهي إحدى الجزر الأفريقية الواقعة في المحيط الهندي على مقربة من جزيرة « مدغشقر » وعلى مدى غير بعيد من جزر « سيشل » وهي جزيرة فقيرة ليس بها إلا قليل من السكان السود ، يعيشون متفرقين في جبالها وغاباتها ، يستعبدهم بضعة أفراد من المستعمرين الأوروبيين .

وكانت « بور لويس » عاصمة لتلك الجزيرة القفراء ، وهي بلدة صغيرة فقيرة ، يعيش فيها « مسيو لابوردنيه » الحاكم الفرنسي . وعلى مقربة منها تقع كنيسة اسمها « بمبلموس » تحف بها غابة من أشجار الخيرزان ، ويمتد أمامها ساحل البحر ، حيث يرى خليج صغير اسمه « خليج تومبو » ؛ أي خليج القبر ، كما يرى أيضًا رأس بارز في البحر يسمى « كاب ماليرو » ؛ أي الرأس البائس .

وخلف العاصمة يقع جبل عظيم مرتفع يسمونه جبل الاستكشاف ، لأنهم كانوا يرقبون من قمته السفن القادمة إلى الجزيرة . وبين دروب هذا

الجبل الشامخ يقع واد مستطيل مهجور ، وفي وسطه كوخان مهدمان لم يبق منهما سوى أطلال الجدران .. وحول الكوخين أرض تبدو أنها كانت مزروعة فيما مضى ، ثم هجرت لسبب ما .. كما توجد مجموعة من أشجار وشجيرات وسيقان وجذوع جفت وماتت لأنها لم تجد من يرعاها أو يرويها.

وبالرغم من وحشة المكان إلا أنه كان يتميز بجمال الطبيعة ويفيض بسحرها البديع . ولذلك فقد كان يلذُّ لي كثيرًا أن أقضي معظم وقتي في هذا الوادي المهجور المثير للأشجان ، أتأمل في أشكال الجبال وألوانه ، وأترقب قرص الشمس حين يغيب بعد الأصيل ، وأستمع إلى سكون رهيب لا يقطعه إلاّ حفيف أوراق الأشجار حين تتمايل الفروع وحين يتماوج سعف النخيل .

وفي أحد الأيام بينما كنت أفكر في شأن هذين الكوخين المهجورين ، وأتخيل مَنْ كان يسكنهما من بني الإنسان ، رأيت رجلاً أبيض يبلغ من العمر أكثر من سبعين عامًا ، وكان يلبس ملابس بسيطة غاية البساطة ، ويتوكأ على عصا تبدو كفرع من فروع الأشجار .. وبعد أن تبادلنا التحية ، جلس العجوز إلى جانبي ، ثم بدأنا نتجاذب أطراف أحاديث طيبة .

وبطبيعة الحال فقد سألت الرجل عن أمر هذين الكوخين ، وقصة السكان الذين كانوا يعيشون فيهما .. وهنا اعترى الرجل العجوز شعور جارف من الحزن ، ووضع يده على جبينه المغضن كأنما هو يفتش في طياته عن ذكريات قديمة أوشك أن يطويها النسيان ..

* قال الرجل العجوز :

في عام 1726، وفد إلى هذه الجزيرة زوجان فرنسيان من إقليم «نورماندي» .. وهما « مسيو دي لاتور » وزوجته « مدام هيلين » وهي شابة نبيلة ، جميلة الصورة ، كريمة الخلق ، طيبة العنصر .

وكان سبب مجيء هذين الزوجين للحياة في تلك الجزيرة المنعزلة ، هو حرص بعض الناس في أوروبا على التفرقة بين الطبقات ، فقد كانت هيلين من أسرة تنتمي إلى طبقة النبلاء الفرنسيين ، أما حبيبها دي لاتور فقد كان فقيرًا ولا ينتمي إلى طبقة النبلاء ، وتغلب الحب فتزوج الحبيبان بالرغم من معارضة أسرة هيلين .. وترك الزوجان فرنسا بكل تقاليدها ، ورحلا إلى جزيرة موريس ليبدآ حياة جديدة سعيدة .

وذات يوم سافر دي لاتور إلى جزيرة مدغشقر ليشتري بعض العبيد السود ليستعين بهم في استصلاح بعض الأراضي وتهيئتها للزراعة .. ولكنه لم يعد إلى جزيرة موريس مرة أخرى .. فقد مات بسبب وباء شديد كان يعصف بأرواح الناس في مدغشقر .. وهكذا أصبحت زوجته هيلين أرملة وحيدة بائسة ، لا تملك شيئًا تستعين به على مواصلة الحياة ، سوى جارية سوداء اسمها « ماري » كانت قد اشترتها عندما حضرت إلى الجزيرة للمرة الأولى .

ولأن هيلين كانت نبيلة وأبيَّة النفس ، فقد صممت على أن تبقى في تلك الجزيرة وتعيش حياتها التي قدرت لها، معتمدة على نفسها . واختارت هذا الوادي المنعزل في بطن الجبل ليكون لها مقرًّا وإقامة دائمة .

غير أن الوادي لم يكن مهجورًا تمامًا ، فقد كانت تسكنه شابة فرنسية جميلة، وفدت إلى الجزيرة هاربة بعد أن كانت تعيش في إقليم « بريتانيا »

بفرنسا .. كانت فتاة من عامة الشعب ولكنها كانت ذات جمال صارخ ، فخدعها أحد الشبان النبلاء بوعد زائف بالزواج ، ثم هجرها حين ملَّها ، كما هجر من قبلها الكثيرات من ضحاياه .. ولم تجد هذه الشابة المسكينة بُدًّا من الهروب بعارها لأنها كانت حاملاً ، وجاءت إلى جزيرة موريس قبل عام من وصول هيلين .

كان اسم هذه الشابة « مرجريت » أما ابنها الذي وضعته فقد أطلقت عليه اسم « بول » .. وكانت تمتلك عبدًا أسود اسمه « دومينج » كان يساعدها في الزراعة وتدبير سبل الحياة في هذا القفر المعزول .

وما إن التقت الشابتان هيلين ومرجريت في لقاء عابر للمرة الأولى ، حتى انعقدت بينهما صداقة وطيدة ومحبة أخوية ظلت تربطهما طوال حياتهما، واشتركتا معًا في كل شيء . وكانت كل منهما تخلص لأختها إخلاصًا صادقًا لم أر مثيلاً له بين البشر .

وبعد عدة شهور وضعت هيلين الطفلة التي كانت قد حملت بها من زوجها الراحل . وكانت طفلة آية في الجمال والرقة . وباركت مرجريت تلك الطفلة وطلبت من صديقتها هيلين أن تطلق على وليدتها اسم «فرجيني» . وقالت لها مهنئة : سيهب الله ابنتك نعمة الفضيلة والعفة ، فتحيا حياة سعيدة هانئة ، فإني ما فقدت السعادة إلا منذ اليوم الذي انحرفت فيه عن طريق الفضيلة !

*** وواصل الرجل العجوز حديث الذكريات فقال :**

نسيت أن أذكر لك يا بني أني أعيش في كوخ على مبعدة من هذين الكوخين ، ومع ذلك فقد كنت أحرص دائمًا على زيارة هاتين الشابتين اللتين

كانتا تعتبراني أبًا لهما.. وكنت أداعب بول وفرجيني وأسعد بطفولتهما البريئة، وأسعد أكثر بتلك الصداقة والأخوة التـي كانت تربط هاتين الشابتين المتحابتين وحياتهمـا السعيدة في مزرعتهما التي كانتا تعيشان فيها مع طفليهما وخادميهما وكلب للحراسة وعنزتين للبن وبضع دجاجات للبيض .

وكان الجميع يشتركون في كل أعمال الزراعة والغزل وإعداد الطعام والملابس وكل شأن آخر من شئون تلك الحياة البسيطة التي يحياها هؤلاء القوم القانعون بهذا اللون الجميل من ألوان السعادة .

وهكذا مرت الأيام سعيدة هانئة . وفي يوم عيد الميلاد الأول للطفلة فرجيني ، احتفل الجميع أيضًا بزواج العبدين الأسودين دومينج وماري.. وكان أعظم ما يؤنس الصديقتين الأختين هيلين ومرجريت ويروِّح عنهما ويمازج بين شعورهما وإحساسهما ، رؤية طفليهما الصغيرين بين أيديهما ، يمرحان ويلعبان ويعدوان وينامان في مهد واحد ، ويستحمان في إناء واحد، ويطـير كل منهما شوقًا إلى صاحبه إذا فقد مكـانه وغاب عن وجهه ، كأنهما أخوان شقيقان ، بل توأمان متشابهان .

ومرت بعد ذلك شهور وسنوات ، وأصبح بول وفرجيني في ميعة الصبا .. وكانا يساعدان أميهما في كافة شئون الحياة . وبطبيعة الحال فقد ارتبط الصبيان ببعضهما ارتباطًا وثيقًا ، تتوجه محبة أخوية عفيفة طاهرة . وكنت أراهما متلازمين دائمًا ، لا يطيق أحدهما البعد عن الآخر ولو للحظة عابرة .

وذات يوم بينما كانت الأمّان هيلين ومرجريت تتداولان فيما سوف يؤول إليه حال بول وفرجيني عندما يصلان إلى سن الزواج ، قالت هيلين إن لها عمة ثرية في فرنسا .. وكانت هذه العمة قد نقمت عليها نقمة شديدة حين تزوجت الشاب الفقير دي لاتور ، وهو من طبقة أدنى بكثير من طبقة النبلاء

.. ومع ذلك فقد قررت هيلين أن تكتب لهذه العمة خطابًا تستعطفها فيه أن تغفر لها زواجها من حبيبها الفقير ، وتشرح لها ما صادفته من ألوان الفقر والشقاء في تلك الجزيرة النائية بعد وفاة زوجها ، وتخبرها فيه أيضًا بأمر ابنتها فرجيني التي تعتبر سليلة للعائلة النبيلة التي تنتمي إليها العمة . وفي نهاية الخطاب توسلت هيلين إلى عمتها أن تكون رحيمة ، وأن تعطف على تلك الابنة التي لا ذنب لها ، وأن تضع هذه الابنة تحت رعايتها وتساعدها على بناء مستقبلها .

ومرت شهور دون أن تتلقى هيلين ردًّا على رسالتها .. فكتبت رسالة ثانية .. ثم ثالثة .. وفي كل رسالة كانت تعيد شرح مأساتها وحياة الفقر التي كانت تحياها هي وابنتها ، وتستجدي العمة أن تعطف على فرجيني وترعى مصالحها باعتبارها سليلة الأسرة .

وأخيرًا علمت هيلين ذات يوم أن « مسيو لابوردنيه » حاكم الجزيرة يبحث عنها ليسلمها خطابًا ورد من عمتها ، فانتابتها على الفور حالة عارمة من البهجة والفرح .. وشدت الرحال إلى « بور لويس » عاصمة الجزيرة لتستلم الخطاب من الحاكم.. وكم كانت صدمتها هائلة حين فتحت الخطاب وقرأت ما فيه .. لقد أشبعتها العمة المتكبرة المتغطرسة لومًا وتقريعًا ، وكان الرد كله شماتة فيما آل إليها حالها من الفقر والضنك ، باعتبار أن ذلك عقاب لها على التنكر لطبقة النبلاء التي كانت تنتمي إليها وزواجها بشاب فقير .

*** وواصل الرجل العجوز حكايته بعد فترة من الصمت الحزين :**

حزنت هيلين حزنًا شديدًا بسبب هذه الرسالة القاسية، وقامت مرجريت بمواساتها وهوَّنت عليها الأمر .. وأخذت تؤكد لها أن السعادة تسكن في

سويداء القلب ولا علاقة لها بالجاه أو المال.. وأن عليهما أن يحمدا الله ، وأن يشعرا بكل الرضا والامتنان والقناعة بتلك الحياة البسيطة التي تسودها السعادة والمحبة والتعاطف الإنساني العظيم الذي يربط بينهم جميعًا .

وهكذا عادت السعادة ترفرف من جديد ، إلى أن وقع حادث عارض كاد يعصف بتلك السعادة ويبددها لولا رحمة الله.. فذات صباح بينما كانت فرجيني تعد طعام إفطار الأسرة ، لمحت امرأة سوداء تترنح مرهقة من شدة الجوع والعطش ، وكانت تبدو كهيكل عظمي هزيل .. وركعت المرأة السوداء عند قدمي فرجيني متوسلة إليها أن تعطيها قطعة خبز وشربة ماء.

عطفت فرجيني على تلك المرأة المسكينة وأخذت تطعمها وتسقيها حتى شبعت وارتوت .. وحكت المرأة حكايتها فقالت إنها جارية مملوكة لرجل أبيض من المستعمرين الفرنسيين الذين يعيشون في تلك الجزيرة .. وأن هذا الرجل غليظ القلب ولا يعرف الرحمة ، وأنه يعامل جواريه وعبيده معاملة الحيوانات ويضرب الجميع بالكرباج ليحثهم على مواصلة العمل المرهق بمزارعه ، دون أن يحصلوا على أي قدر من الراحة ، ولا يمنحهم من الطعام إلا ما يقيم أودهم ويسد رمقهم .. ثم كشفت المرأة المسكينة عن ظهرها ، فلاحظت فرجيني آثار الضرب بالكرباج على شكل خطوط ذات جروح حمراء متقرحة .

رثت فرجيني لحال المرأة المسكينة ، وبكل مشاعر البراءة والطيبة عرضت عليها أن تعيدها إلى سيدها الفرنسي ، وأن تطلب من سيدها أن يعفو عنها ويعاملها بالقدر الواجب من الرحمة والإنسانية .

وعرضت فرجيني على بول هذا الأمر فوافق على الذهاب معها لمقابلة هذا المزارع الفرنسي الذي يعامل المرأة المسكينة بكل هذه القسوة . وهكذا رحل بول وفرجيني ومعهما الجارية المسكينة إلى حيث تقع مزارع الرجل الفرنسي التي كانا يظناها في موقع قريب . ولكن الرحلة طالت ، وكان الطريق متعرجًا وتعترضه الأحراش والغابات والجبال والتلال والجداول والأنهار ، إلى أن وصلوا في النهاية إلى مزرعة الرجل الأبيض ، ورأوه وهو يمشي مختالاً وسط الحقول ويدخن غليونه باستمتاع ، ويضرب العبيد باستمتاع أكبر .

انحنت فرجيني أمام الرجل تحية له وطلبت منه أن يعفو عن الخادمة المسكينة ويعالج جروحها .. وكان الرجل ينظر إلى فرجيني بنظرات شريرة وشهوة شيطانية ، وتظاهر بالعفو عن الخادمة وقال لفرجيني إنه سيعفو عن تلك الخادمة من أجل جمالها ورقتها وشعرها الذهبي الناعم .. فاطمأنت فرجيني وشكرت الرجل وانصرفت هي وبول عائدين إلى مزرعتهما .

ولكنهما ضلا طريقهما وسط الجبال والغابات ، ولم يكن لديهما أي طعام أو شراب ، وقد أضناهما التعب بعد الجهد الكبير في رحلة الذهاب ورحلة العودة . ولم تعد فرجيني قادرة على مواصلة السير فجلست على الأرض منهوكة القوى ، وارتمى بول إلى جانبها يحاول أن يخفف عنها عناء الجوع والعطش ، وأن يقوي عزمها حتى يمكنها الوصول إلى مزرعتها قبل أن يحل ظلام الليل .

ولأن الله كان رحيمًا بهما ، فقد سمعا صوتًا خفيضًا كخرير مياه صافية كانت تتساقط من بين صخور الجبل ، كما شاهدا نخلة تحمل بعض ثمار جوز الهند .. فأكلا وشربا وعزما على مواصلة السير في طرق مجهولة

لا يعرفان أين تؤدي بهما .. ثم غربت الشمس وبدأت جيوش الظلام تتسلل إلى قبة السماء التي تتناثر فيها نجوم لا حصر لها ولكنها خافتة الضوء .. وبدأ بول وفرجيني يحسان فعلاً بالخوف والهلع من ذلك المصير البائس ، وكان أكثر ما يؤلمهما هو إحساسهما بحالة أميهما هيلين ومرجريت حين عادتا ولم تجدا بول ولا فرجيني ولا تعرفان شيئًا عن مصيرهما ولا أين ذهبا..

وقبيل منتصف الليل سمعا نباح كلب قريب .. ثم سرعان ما ظهر أمامهما كلبهما المخلص « فيديل » الذي كان في صحبة الخادم دومينج الذي كان قد خرج للبحث عنهما .. وقد تشمم الكلب كل الطريق الذي قطعه بول وفرجيني في رحلتي الذهاب والعودة إلى أن عثر عليهما في النهاية .. وكانت فرحة الأمّين هيلين ومرجريت بعودة بول وفرجيني سالمين فرحة عارمة لا يمكن وصفها .

ولأن بول كان فتى ذكيًا موفور النشاط ، فقد أخذ يعمل في المزرعة على مدار السنة بكل همة حتى أصبحت المزرعة في النهاية جنة صغيرة موفورة الثمار .. وفاضت السعادة بالتالي على جميع الأفراد الذين تربطهم أواصر الرضا والقناعة والمحبة .. وكانوا يعيشون حياة بسيطة رغدة وهانئة تظللها الفضيلة والإيمان بالله ، فكانوا يؤدون صلواتهم شكرًا لله وحمدًا في كل وقت من أوقات النهار ، صبحًا وضحى وعصرًا وعشاءً .

وفي أيام وليالي الشتاء حين تغضب الطبيعة وتزأر الرياح ويشتد البرد، كانوا يتجمعون داخل كوخهم يتسامرون بالحكايات الجميلة التي تفيض بالمشاعر الإنسانية الطيبة .

وذات ربيع .. حين تفتحت الزهور ، واكتست الطبيعة بحلة الجمال والبهاء ، تفتح قلب كل من بول وفرجيني على مشاعر جديدة لم يشعر بها أي منهما من قبل .. هي مشاعر الحب والغرام العفيف الطاهر المزدان بالشرف والفضيلة .

• وهنا توقف الرجل العجوز عن الحديث.. ومرت فترة صمت طويلة، وبدت على وجهه ملامح أحزان عميقة تبدو كما لو كانت دفينة في أعماق قلبه ولا تريد أن ينطق بها لسانه .. واحترمت مشاعر الرجل ، ولم أسأله عما حدث بعد ذلك .. وأخيرًا تحامل العجوز على نفسه وواصل حديثه بصوت حزين متهدج فقال :

إن الحياة يا بني تحمل الضراء كما تحمل السراء ، وتجيء أحيانًا بالأفراح وأحيانًا أخرى بالأحزان ، ودوام الحال من المحال .. ففي يوم ما ، وصلت إلى الجزيرة سفينة قادمة من فرنسا .. ومن ضمن الرسائل التي كانت تحملها تلك السفينة رسالة إلى هيلين أرسلتها عمتها النبيلة التي تعيش في فرنسا .. وكانت رسالة مغايرة تمامًا عن الرسالة المهينة السابقة التي أرسلتها العمة منذ سنوات .

كانت الرسالة الجديدة تعبر عن اعتذار العمة وندمها على كل ما بدر منها من قطيعة وجفاء ، وعرضت العمة على هيلين وابنتها فرجيني أن تحضرا إلى فرنسا لتعيشا معها في أيامها الأخيرة .. وذكرت العمة أيضًا أنها ستوصي بكل ثروتها إلى فرجيني .

تداول الجميع في أمر تلك الرسالة والعروض المغرية التي تضمنتها ، وانتهت الأحاديث والمناقشات إلى إعلان هيلين للجميع أنها لن تفارقهم

ولن تغادر الجزيرة وستبقى معهم إلى النهاية ، ولكنها في الوقت نفسه ترغب في أن تسافر ابنتها فرجيني إلى فرنسا حتى يمكنها أن تضمن مستقبل حياتها بعيدًا عن حياة الفقر والضنك في الجزيرة .

واشترك مسيو لابوردنيه حاكم الجزيرة ومعه كاهن الكنيسة في إقناع الجميع بأن من الأفضل لفرجيني أن تعود إلى عمة والدتها لتتمتع بالجاه والثروة وتعيش حياة راقية في أوربا .. وطلب الحاكم الإسراع في إعداد فرجيني للسفر إلى السفينة التي ستغادر الجزيرة بعد ثلاثة أيام متوجهة إلى فرنسا .

ولا يمكن تصور مدى الحزن والألم اللذين عصفا بقلب بول حين سمع كل تلك الأخبار السيئة التي تفرق بينه وبين فرجيني .. فكيف له أن يبقى في الجزيرة لحظة واحدة دون أن يسمع فرجيني ويراها .. وكيف لهذا الرباط الشريف العفيف الذي ربط بين قلبه وقلبها أن يستمر في ذلك المصير المجهول حين تعيش فرجيني في فرنسا ..؟!

ولم يطمئن قلب الفتى المسكين .. حتى عندما أقسمت له فرجيني أمام أمها وأمه بأنها ستكون له دائمًا ، ولن تكون لأحد سواه مهما تغيرت الأحوال وتقلبت أحداث الدنيا .. وأقسمت له أيضًا بأنها ستسافر من أجله هو ، ومن أجل حياتها المستقبلية ، وأنها سوف تعود إلى الجزيرة ربما بعد شهور قليلة وستنصلح جميع الأحوال .

وسرعان ما وقع القدر المكتوب .. وسافرت فرجيني إلى فرنسا .. وحلَّ الحزن والشقاء محل الفرح والسعادة .. وتبدلت أحوال الوادي في عيون ساكنيه .. فما كان جميلاً من قبل أصبح كئيبًا لا يحتمل .. حتى خيِّل لهم أن نور

الشمس وضوء القمر أصبحا خافتين ، وأن زقزقة العصافير وتغريد الطيور الجميلة لم يعد لها أثر ، وأصبح الطعام بلا مذاق أو طعم ، وأصبحت الورود والزهور بلا رائحة ولم تعد تشع عبقًا ولا عطرًا .

- ومرت ثلاثة أعوام على رحيل فرجيني دون أن تصل منها رسالة واحدة ، بالرغم من الرسائل العديدة التي كانت ترسلها أمها والتي كان يرسلها بول إليها . وشاع الإحساس بالخوف والقلق واليأس في نفوس الجميع ، إلى أن وصلت في النهاية إحدى الرسائل التي كانت ترسلها فرجيني من فرنسا . وعرفوا أخيرًا السر في انقطاع المراسلة حيث كانت العمة القاسية تحصل على تلك المراسلات بإحدى طرقها الماكرة وتقوم بتمزيقها ، حتى تبعد فرجيني تمامًا عن أي تواصل بينها وبين ذويها في جزيرة موريس .

وقالت فرجيني في رسالتها إنها تعيش كالسجينة في قصر عمتها .. وأن الخدم والوصيفات ينادونها باسم « الكونتيسة فرجيني » وأنها أصبحت ترتدي ثيابًا فاخرة ، وتنعم بكل أطايب الحياة ، ومع ذلك فهي يائسة يمزق الحزن قلبها في كل لحظة ، وتتمنى أن تعود فورًا إلى واديهم الجميل في جزيرة موريس وإلى أمها هيلين وإلى مرجريت وإلى حبيبها بول وإلى دومينج وماري، وإلى العنزات والدواجن التي كانت ترعاها ، وإلى نسمات الهواء النقية التي كانت تدخل إلى رئتيها محملة بالحب والود والتعاطف والشرف والفضيلة وراحة البال وهدوء النفوس المؤمنة الراضية.

ها هي فرجيني إذن باقية على عهدها لم تتغير .. وامتلأ قلب بول بالأمل في عودتها .. بل وأصبح يتوقع عودتها كلما أشرقت شمس الصباح، وعندما تغيب الشمس وتتلألأ النجوم في السماء ، يمنِّي نفسه بأنها ستعود في صباح الغد القريب .

ونشط بول في غرس الورود والزهور في كل مكان بالوادي وحول الكوخين وفي جميع الأماكن الأخـرى التي كانا يترددان عليها ولهما فيها ذكريات لا تنسى .

وفي عصر يوم 24 ديسمبر 1744 رأى بول العلم الأبيض يخفق فوق قمة جبل الاستكشاف ، فعلم أن سفينة قادمة إلى الجزيرة ، وانتابه شعور بأمـل عظيم في أن تكـون فرجـيني بين ركـاب تلك السـفينة . وشـاء الله أن يحقق أمله .. فقد عاد مرشد الميناء وأعلن أن السفينة راسية خارج الميناء لأن الرياح لا تساعدها على مواصلة الإبحار ، ومن المحتمل أن تدخل السفينة إلى مرساها بالميناء في الصباح الباكر . وكان المرشد قد عاد لتوه من السفينة ومعه مجموعة من الرسائل المرسلة من فرنسا والرسائل المرسلة من ركاب السفينة أنفسهم إلى ذويهم من سكان الجزيرة .

وما إن تسلم بول الرسالة التي بعثت بها فرجيني ، حتى أخذ يعدو بأقصى طاقته ليسلم الرسالة إلى أمها هيلين التي فتحتها ودموع الفرح تتلألأ في عينيها وعيون الجميع . وقرأت هيلين الرسالة بصوت مرتفع كلمة كلمة، وتبين للجميع أن فرجيني قررت العودة إليهم بعد أن أساءت العمة معاملتها بل وحرمتها من الميراث . وأن هذه الرسالة التي كتبتها فرجيني بمنتهى السرعة تحمل أشواقها للقائهم في صباح اليوم التالي عندما ترسو السفينة على رصيف الميناء .

وامتلأت قلوب الجميع بمشاعر الفرح، وأخذوا يهللون ويرقصون.. وتركهم بول في فرحهم وحبورهم ، وانطلق يعدو نحو كوخي ليخبرني بهذا النبأ العظيم ، فكاد قلبي يطير من صدري مسرورًا بعودة فرجيني العزيزة التي كنت أُكنّ لها حبًّا أكثر مما لو كانت ابنتي ومن صلبي .

وأخبرني بول بأنه سيقضي الليل على رصيف الميناء انتظارًا لوصول السفينة في الصباح الباكر ليكون في استقبال فرجيني ، فطلبت منه أن يأخذني معه .. وسرنا في ظلام الليل نتحسس طريقنا حتى وصلنا إلى الميناء. وهناك علمنا أن التيار قد جرف السفينة إلى شواطئ صخرية وعرة لجزيرة أخرى قريبة ، وأن السفينة أخذت تطلق مدافعها طالبة النجدة .

وظللنا منتظرين والقلق يعصر قلوبنا عصرًا ، وما إن اقترب نور الفجر حتى بدأت تباشير عاصفة عاتية اشتد فيها هبوب الرياح وارتفعت فيها أمواج البحر وكأنها جبال متحركة أخذت تصطدم وتتكسر على صخور الشاطئ ورماله .. واستحال الأمر على قارب الإنقاذ أن يخرج من مرساه لإنقاذ مَنْ على السفينة من ركاب وملاحين .

- وعندما انبلج نور الصباح وأصبح كل شيء واضحًا ، ظهرت لنا المأساة كاملة ، فقد تكسرت صواري السفينة وتمزقت أشرعتها وتحطمت مقدمتها وكادت تغوص في أعماق البحر لولا أن مؤخرتها ظلت عالقة بعض الصخور المدببة .

وكان الركاب والبحارة قد ألقوا بكل ما طالته أياديهم من ألواح خشبية ومجاديف وصناديق وألقوا بأنفسهم وراءها ليتشبثوا بها إنقاذًا لحياتهم وسط بحر عاصف غاضب وأمواج صاخبة متلاطمة .

وعلى حافة مؤخرة السفينة شاهدنا فرجيني وكانت تقف وحدها وقد ضمت ثوبها إلى صدرها بإحدى يديها ، بينما تشير بيدها الأخرى كما لو كانت تستغيث بنا .

عندئذ اندفع بول نحو البحر ليلقي بنفسه فيه ، فاعترضت طريقه أنا والخادم دومينج ، وحاولنا أن نمنعه فلم نستطع ، وظل يصيح بأعلى صوته:

دعوني أنقذ فرجيني .. دعوني أنقذها ! فامتثلنا لرغبته ، غير أننا ربطنا في وسطه حبلاً طويلاً أبقينا طرفه في أيدينا خوفًا عليه من الهلاك .. واقتحم بول جبال الأمواج العالية سابحًا تجاه السفينة .

ولكن كيف لهذا الفتى المسكين مهما أوتي من شجاعة وإقدام أن يواجه هذا البحر الجبار ، فقد أخذت الأمواج ترفعه وتخفضه ، وتخبطه أحيانًا في بعض الصخور الناتئة فسالت دماؤه وخارت قواه .

وبينما كنا نجذب الحبل لننقذه من هلاك محقق ، ظهر في مؤخرة السفينة بحار خلع كل ملابسه وأوشك أن يلقي بنفسه في مياه البحر .. وعندما لمح فرجيني واقفة ، أراد أن ينقذها معه ، وطلب منها أن تخلع ثيابها ليحملها فوق ظهره ويسبح بها نحو الشاطئ .. ولكن غلب الحياء على تلك الفتاة الفاضلة حين رأت رجلاً عاريًا بين يديها يريد أن يضمها عارية إلى جسمه ، فرفضت بشدة أن تخلع ثيابها وأشاحت بوجهها ، فأخذ الناس يصيحون للبحار : انقذها .. انقذها !

وفي تلك اللحظة البائسة أقبلت موجة عالية كالجبل وضربت حطام السفينة ضربة هائلة، وأغمض الناس عيونهم جزعًا من هذا المنظر المخيف، وعندما فتحوها كان البحر قد ابتلع كل شيء !

- وعندما وصل الرجل العجوز إلى هذه النقطة المأساوية في القصة التي كان يحكيها ، لفَّه الصمت ولم يعد قادرًا على مواصلة الحديث .. وانفجر في نوبة حزينة من البكاء والأنين خلعت قلبي حزنًا وأسى .. وسال الدمع من عينيَّ مدرارًا .. وعندما استعاد الرجل العجوز سكينته وهدوء نفسه ، واصل الحديث الحزين فقال :

بالرغم من مرور أكثر من عشـرين سنة على هذه الأحـداث المؤلمة ، إلا أني ما زلت أذكرها لأنها محفورة في أعماق قلبي ولا تغيب ذكراها ولو للحظة واحدة .

وكأن موت فرجيني كان إيذانًا لملاك الموت أن يحمل إليها جميع هؤلاء الذين أحبتهم وأحبوها .. فقد ماتت أمها هيلين مصدومة حين أبلغوها بالخبر الحزين.. ومات بول بعد أن عاش ثمانية أيام في حالة مبكية من الذهول واليأس، غير عابئ بمداواة جروحه التي حدثت بكل جسمه وأطرافه حين حاول السباحة في البحر الهائج لإنقاذ حبيبته ، وجروح قلبه ونفسه حين رأى حبيبة القلب تموت أمام عينيه .. وماتت أمه مرجريت بعد ثلاثة أيام من وفاته قضتها صابرة صامتة بالرغم من الأحزان التي كانت تمزق قلبها .

وبعد أن رحل هؤلاء الأصدقاء الطيبون إلى السماء ليعيشوا هانئين مع الأبرار والملائكة الأطهار .. كان من واجبي أن أصحب معي الخادمين دومينج وماري ليعيشا معي في كوخي.. ولكنهما كانا حزينين يائسين لا يكفان عن البكاء ليل نهار .. وبعد شهور قليلة مات دومينج ثم لحقت به زوجته ماري .

ولأن الله لا يترك ظالمًا دون حساب ، فقد علمت بعد مرور بضع سنوات على هذه الحادثة المفجعة ، أن تلك العمة القاسية التي تسببت في هذه المأساة قد أصابها الجنون والهذيان ، ثم ماتت حامـلة معها حسرتها وقسوتها إلى قبرها.

وها هو الوادي الذي شهد حياة هؤلاء الأبرار الأنقياء وقد أصبح خاويًا .. وخلت الأرض منهـم جميعًا ، حتى من كلبهـم وماشيتهم وطيورهم



وعصافيرهم ، ولم يبق من آثارهم غير بقايا تلك الجدران المتهدمة التي تراها أمامك ، والتي مازالت تقاوم عوامل الفناء .. وهكذا شأن الحياة .

* * *

وبعد أن انتهى العجوز من تلك القصة المحزنة ، استأذن في العودة إلى كوخه قبل أن يحل ظلام الليل.. ووصف لي الطريق إلى هذا الكوخ الذي يقع في الجانب الآخر من هذا الوادي القابع في بطن الجبل .. وحيَّاني ، ثم نهض مرتكزًا على عصاه .. وسار الهوينى وكأنه يفك قدميه من الأرض فكًّا، وكان يهتز وينتفض من شدة إحساسه بوقع هذه الذكريات في نفسه .

وعندما عدت إلى بيتي ، كانت هذه القصة ماثلة أمامي بكل شخوصها وأحداثها ، فلم أستطع النوم ، ولم يغمض لي جفن . وفي الصباح المبكر قررت أن أزور الرجل العجوز في كوخه لكي أطمئن على حاله ، ولأوثق أواصر الصداقة الطيبة التي ربطني بها وعقدها معي .

وعندما وصلت إلى الكوخ ، وجدت الرجل ملقيًّا على الأرض تحت شجرة وحيدة كان قد أخبرني بأن فرجيني هي التي غرستها أمام كوخه منذ سنين مضت .. وعلى فرع من فروع تلك الشجرة وقف عصفور صغير يغرد بنغم حزين باكٍ .

يا له من رجل مسكين.. لقد مات، ولا صديق يوسد رأسه أو يسبل أجفانه .. ولا عين تبكي عليه سوى ذلك العصفور الصغير الذي ينوح فوق رأسه .

هكذا الدنيا وهذا منتهى كل حي ، ما لحي من بقاءُ !

* * *

وليم شكسبير

ضجيج بلا مبرر

MUCH ADO ABOUT NOTHING
BY : WILLIAM SHAKESPEARE

حـاكم « مسينا » رجل نبيل طيب اسمه « ليوناتو » .. وتعيش معه في قصره ابنته « هيرو » وهي فتاة جميلة جادة الحديث ، وابنة أخيه « بياتريس » وهي فتاة جميلة أيضًا، ولكنها تتميز بالمرح والقدرة على الأحاديث الساخرة.

وذات يوم قام مجموعة من الشبان من ذوي المناصب الرفيعة والرتب العسكرية العالية بزيارة الحاكم « ليوناتو » في قصره .. وكان من بين هؤلاء الشبان « دون بيردو » أمير أراجون ، وصديقه « كلوديو » لورد فلورنسا ، وصديقه الآخر « بينيدك » لورد بادوا الذي يتميز بكثير من الشجاعة والذكاء ويتمتع أيضًا بالقدرة على الأحاديث الطلية الساخرة .

وفي كل مرة يلتقي فيها كل من « بينيدك » و« بياتريس » تبدأ على الفور حرب كلامية يتبادلان فيها كلمات السخرية .. وفي هذه الزيارة كان «بينيدك» منطلقًا في أحاديثه الطلية مع الحاكم وأصدقائه حين قاطعته «بياتريس» قائلـة بسخـرية : إنك يا سيدي تتحدث بصفة مستمـرة دون أن يصغي أحد إلى حديثك !

فرد عليها « بينيدك » ساخرًا : أوه .. أيتها الشابة الجميلة المتغطرسة .. هل ما زلت على قيد الحياة ؟!

وهكذا استمر الحديث الساخر بين كل من « بينيدك » و« بياتريس »..
وكان « دون بيردو » أمير أراجون ينصت بإمعان إلى هذا الحديث ، ويتمتع بسماع الكلمات الساخرة التي تتميز باللباقة والأدب ، والتي يتبادلها هذان المتحدثان اللذان يبدوان كعدوين لدودين . ومع ذلك فقد كان الأمير مقتنعًا في قرارة نفسه بأن « بياتريس » فتاة مرحة خفيفة الظل ، ومن الممكن أن تصبح أفضل زوجة لصديقه « بينيدك » . ويا حبذا لو استطاع الأمير أن يقنع الطرفين بهذه الفكرة .

وعندما عرض الأمير هذه الفكرة على الحاكم « ليوناتو » اندهش الحاكم وقال متعجبًا : يا سيدي الأمير .. إني أعتقد بأنه لو تم الزواج بين «بينيدك» و« بياتريس » لمدة أسبوع واحد ، فإن من المتوقع أن يصاب كل منهما بالجنون!

* * *

- ولاحظ الأمير أيضًا أن صديقه «كلوديو» لورد فلورنسا، يكنُّ حبًّا عظيمًا للفتاة الجميلة الهادئة « هيرو » ابنة « ليوناتو » حاكم مسينا . وشعر الأمير بذلك بسبب النظرات الحنون والأحاديث اللطيفة الطيبة التي يتبادلها الحبيبان . وأراد الأمير أن يتأكد من صحة استنتاجه ، فسأل صديقه «كلوديو» عن حقيقة مشاعره تجاه « هيرو » .. فاعترف « كلوديو » بأنه وقع في غرامها منذ أول مرة تقابل معها ، وكان ذلك منذ فترة طويلة ، وأنه كان يريد أن يتأكد من أنها تبادله حبًّا بحب ، وقد لمس ذلك منها في هذه الزيارة .. وبالتالي فإنه يتمنى أن يتم زواجه منها .. وطلب من الأمير أن يتوسط في هذا الزواج وأن يفاتح والدها في هذا الأمر .

ولم يجد الأمير أية صعوبة في مفاتحة « ليوناتو » في أمر زواج ابنته «هيرو» من صديقه « كلوديو » .. فوافق « ليوناتو » على هذا الزواج وباركه، واعترف بأن «كلوديو» شاب نبيل يتمتع بمواهب عظيمة وعقل راجح وأخلاق طيبة، وأنه خير زوج لابنته « هيرو » . واتفق الجميع على أن يتم زفاف العروسين في أقرب فرصة ممكنة وخلال أيام قليلة .

وفي هذا الجو المفعم بالفرح ، اقترح الأمير أيضًا أن يشترك الجميع معًا في تدبير خطة محكمة تجعل « بياتريس » مقتنعة بأن « بينيدك » واقع في غرامها ، كما تجعل « بينيدك » يشعر بأن « بياتريس » واقعة في حبه ، وإذا نجحت هذه الخطة ، فقد يكون من الممكن أن يتم الزواج بينهما في الوقت نفسه الذي يتم فيه زواج « كلوديو » و« هيرو » .

وافق الجميع على الاشتراك في هذه الخطة التي يدبرها الأمير .. ووافق كل من « ليوناتو » و« كلوديو » أن يقوم بالدور المخصص له في تلك الخطة، كما أعلنت « هيرو » أنها مستعدة لعمل أي شيء لتسهيل زواج ابنة عمها «بياتريس» .

* * *

- وضع الأمير خطته على أساس أن يقوم هو و«ليوناتو» و«كلوديو» بطريقة مستترة وغير مباشرة بالإيعاز إلى « بينيدك » بأن « بياتريس » تحبه .. وانتهز الجميع الفرصة حين شاهدوا « بينيدك » جالسًا وحده في حديقة القصر ومنهمكًا في قراءة أحد الكتب .. فاقتربوا من مجلسه ، وتظاهروا بأنهم لم يشاهدوه ، وأخذوا يتكلمون ويتحادثون بصوت مرتفع بحيث يسمعه «بينيدك» وهو جالس في مكانه .. وقال الأمير مخاطبًا « ليوناتو » :

- هل صحيح أن «بياتريس» ابنة أخيك تحب صديقنا « بينيدك » ؟ .. أنا لا أتصور أن هذه الفتاة قادرة على الحب .. ولا أتصور أنها تحب أحدًا ..!

فقال « ليوناتو » :

- وأنا أيضًا يا سيدي الأمير .. أكاد لا أصدق أنها قد وقعت في حب صديقنا « بينيدك » .. ولكن هذه هي الحقيقة .. بالرغم من أنها تتظاهر بأنها تكرهه وتسخر منه دائمًا !

وعندئذ قال « كلوديو » :

- لقد أخبرتني حبيبتي « هيرو » بأن « بياتريس » تحب « بينيدك » ومولعة به وبشخصيته الفريدة .. وأنها ستموت إذا لم يتنبه « بينيدك » إلى حبها ويعرف قدر الحب الذي تكنه له في قلبها .

وهنا قال الأمير :

- أرى من واجبنا أن نخبر « بينيدك » بطريقة أو بأخرى بأمر هذا الحب .. وأن نطلب منه ألا يضايق « بياتريس » .. فهي فتاة لطيفة وعاقلة ويجب معاملتها بكل رقة .

وبعد هذا الحديث الذي سمعه « بينيدك » كلمة كلمة .. قام الجميع وانصرفوا من مجلسهم .. وتركوه يفكر في هذا الموضوع الغريب الذي لم يخطر على باله أبدًا ..

وأخذ « بينيدك » يسائل نفسه .. كيف لم يلحظ بنفسه مظاهر ذلك الحب الذي تُكنه « بياتريس » له .. وكيف فات عليه أن يدرك أن هذه الفتاة اللبقة الجميلة كانت تعبر عن حبها له بتلك الكلمات التي كانت تغيظه .. وفي تلك الأثناء أقبلت « بياتريس » نحوه .. وقالت له بكلماتها الساخرة المعتادة :

- لقد جئت إليك دون أن أكون راغبة في المجيء إليك .. لأؤدي واجبي في دعوتك إلى تناول طعام الغداء !

وبالرغم من هذه السخرية الواضحة.. فقد اعتبر « بينيدك » هذه الكلمات من ألطف ما سمعته أذناه .. وقام يلبي تلك الدعوة إلى الغداء وهو يشعر بسعادة غامرة ويقول في نفسه : لابد أن أبادلها حبًا بحب !

* * *

• أما الشق الثاني من تلك الخطة المرحة التي دبرها الأمير ، فهو إقناع «بياتريس» بأن «بينيدك» يحبها .. وهو الدور الذي كان على « هيرو » أن تقوم بتنفيذه .

استدعت «هيرو» وصيفتيها «أرسولا» و« مارجريت » وطلبت منهما أن تشتركا معها في تنفيذ تلك الخطة ، وذلك بأن تذهب الوصيفة «مارجريت» لتهمس في أذن «بياتريس» بأن « هيرو » ووصيفتها «أرسولا» تتمشيان في حديقة القصر وتتحدثان معًا في موضوع يخصها ، وتنصحها بأن تذهب إلى الشرفة وتتسمع إلى هذا الحديث خفية ..

وفعلت « مارجريت » ما كُلِّفت به .. وفي الوقت نفسه أخذت «هيرو» ووصيفتها « أرسولا » تتمشيان في الحديقة ذهابًا وإيابًا وتتبادلان حديثًا سبق أن اتفقتا عليه .. قالت « هيرو » لوصيفتها :

أنا متأكدة تمامًا من أن « بينيدك » يحب « بياتريس » حبًا جمًا بالرغم من تصرفاته معها وبالرغم من كلماته الساخرة .. لقد أخبرني عزيزي «كلوديو» أن « بينيدك » واقع في غرامها منذ مدة طويلة .. وأن اللحظات التي يتبادل الحديث معها هي أسعد لحظات حياته، لأنه يسمع صوتها الجميل وهي تنطق

كلماتها الساخرة التي تدل على اللباقة والأدب وخفة الظل .. وأن الشيء الوحيد الذي يقلقه ويضايقه هو أن « بياتريس » لا تحس بمشاعره نحوه .. ولا تدرك مدى حبه لها بالرغم من ذكائها وقدرتها على الفهم .

وقالت الوصيفة « أرسولا » :

– ولكن يا سيدتي .. هل تظنين أنه ينوي الزواج بها ..؟

فقالت « هيرو » على الفور :

– بكل تأكيد .. فقد قال لي « كلوديو » إنه أخبره بأن اليوم الذي ستوافق فيه «بياتريس» على الزواج منه سيعتبر أسعد أيام حياته ..

وتساءلت الوصيفة :

– وهل تقبل سيدتي « بياتريس » هذا الزواج من « بينيدك » ؟

فأجابت « هيرو » :

– من المؤكد أنها ستقبل الزواج به إذا عرفت أنه يُكنُّ لها كل هذا الحب .. إن « بينيدك » شاب مرموق ونبيل ويتمتع بمواهب عظيمة .. وهو مشهور بشجاعته وسمعته الطيبة .. وربما سيصبح في يوم ما الرجل الأول في إيطاليا كلها ..!

وكانت « بياتريس » تسمع هذا الحديث الذي يدور بين « هيرو » ووصيفتها وهي في غاية الدهشة .. فلم تكن تتصور أن « بينيدك » يحبها كل هذا الحب .. وكيف فات عليها أن تدرك مشاعره الحقيقية نحوها.. وقالت في نفسها : يجب أن أغيِّر طريقتي في معاملته .. وأن أبادله حبًّا بحب !

وهكذا وقعت « بياتريس » في الفخ المنصوب لها ..

* * *

- ولكن الأشرار كثيرًا ما لا يتركون الناس في حالهم ، وكثيرًا ما يتدخلون ليفسدوا على الناس أفراحهم وسعادتهم .. فقد كان للأمير «دون بيردو» أخ غير شقيق ، وكان هذا الأخ واسمه « دون جون » شريرًا سيئ الخلق ويكره أخاه الأمير ويحقد عليه .. وعندما شعر هذا الأخ الشرير بأن الأمير مهتم بزواج صديقه « كلوديو » من الفتاة « هيرو » ابنة « ليوناتو » حاكم مسينا ، امتلأت نفسه بالشر ، ووضع خطة دنيئة لكي يفسد هذا الزواج ، ويحرج أخاه الأمير أمام الجميع . وكان لهذا الأخ الشرير صديق شرير مثله اسمه «بوراشيو».. وكان «بوراشيو» هذا على علاقة بالوصيفة «مارجريت» التي تعمل في خدمة « هيرو » .

وكانت الخطة التي وضعها هذان الشريران واتفقا على تنفيذها في الليلة السابقة على حفل زواج «كلوديو» و« هيرو » الذي سيقام في الكنيسة في اليوم التالي، هي أن يطلب «بوراشيو» من صديقته الوصيفة «مارجريت» أن ترتدي ملابس سيدتها بعد أن تتأكد من نومها في تلك الليلة ، وأن تقف في شرفة القصر قرب منتصف الليل وهي ترتدي تلك الملابس، وأن تتبادل حديثًا هامسًا بينها وبين صديقها « بوراشيو » . وبذلك يبدو الأمر كما لو كانت « هيرو » نفسها هي التي تتبادل مع «بوراشيو» أحاديث الغرام .

وذهب الأخ الشرير إلى أخيه الأمير وصديقه « كلوديو » وأخبرهما بأن «هيرو» فتاة لعوب مستهترة ، وتتبادل أحاديث الهوى مع شاب غريب في كل ليلة .. وعرض عليهما أن يحضرا معه لمشاهدة هذا المنظر المخزي في منتصف تلك الليلة ، وليتأكدا بنفسيهما من صدق قوله ..

وعندما ذهب الأمير وصديقه «كلوديو» مع الأخ الشرير «دون جون» إلى الحديقة قرب منتصف الليل ، شاهدا «مارجريت» - وهي مرتدية ملابس سيدتها « هيرو » - تطل من نافذة غرفتها وتتبادل أحاديث الغرام مع الشاب «بوراشيو».. وانطلت تلك الخدعة الدنيئة على الأمير وعلى صديقه «كلوديو» الذي استشاط غضبًا من سوء أخلاق الفتاة التي كان يظنها فتاة شريفة عفيفة، وما كان يتصور أبدًا أن يبلغ بها الاستهتار إلى هذا الحد ، وتتحادث مع عشيقها في نفس الليلة السابقة على زفافها .

وكتم « كلوديو » غيظه ، وعرض على الأمير أن يؤجلا انتقامهما من تلك الفتاة السيئة إلى اليوم التالي ، وأن يعلنا تلك الفضيحة المخزية أمام الجميع أثناء الاحتفال بعقد القران ، وأن يعلن « كلوديو » رفضه الزواج من تلك الفتاة المستهترة التي تتبادل أحاديث الهوى مع عشيقها في الليلة السابقة على عقد قرانها على شاب نبيل مثله ، وبذلك يلحق العار بها وبأبيها أمام كل الحاضرين .

* * *

- وفي اليوم التالي ذهب الجميع للاحتفال بعقد القران.. ووقف العروسان «كلوديو» و«هيرو» وبدأت المراسم الخاصة بالزواج .. وهنا أعلن «كلوديو» بصوت عال أنه لن يتزوج من تلك الفتاة المستهترة .. وروى لجميع الحاضرين كيف شاهدها- هو والأمير- ليلة الأمس وهي تخاطب عشيقها ..

كان هذا الإعلان صدمة مروعة للفتاة الشريفة المظلومة ، فسقطت على الأرض مغشيًّا عليها .. كما انهار أبوها « ليوناتو » من شدة إحساسه بهذا

العار المفاجئ . أما الأمير وصديقه « كلوديو » فقد انصرفا وهما ينتفضان من شدة الغضب .

وتقدم «بينيدك» ومعه «بياتريس» وأخذا يعملان بكل همة لإفاقة «هيرو» من غشيتها .. وقالت « بياتريس » إنها تثق تمامًا في ابنة عمها ولا تصدق كلمة واحدة من هذا الاتهام الظالم الذي وجه إليها .. وقال «بينيدك» إنه يتصور أن «هيرو» الفتاة الشريفة الطيبة تحب « كلوديو » حبًّا جمًّا ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تخونه على هذا النحو المشين .

أما القسيس العجوز الذي كان يتولى عقد قران العروسين ، فقد كان على يقين من أن « هيرو » قد ظلمت فعلاً بهذا الاتهام القاسي الذي يطعنها في شرفها ، ولذلك قال لوالدها إنه متأكد من أن هناك ظلمًا فادحًا قد وقع على هذه الفتاة العفيفة .. وأن الاتهام الذي وجه إليها باطل من أساسه .

وعندما أفاقت « هيرو » من غشيتها ، قالت لأبيها والدموع تترقرق في عينيها : أقسم لك يا أبي إني بريئة من هذا الاتهام .. ولم أحدِّث أحدًا من نافذة غرفتي في ليلة الأمس كما يقولون .. أرجوك يا أبي أن تصدقني ، فأنا لا أكذب ولم أكذب عليك أبدًا .

* * *

- كان القسيس العجوز رجلاً حكيمًا ، وحاول بكل جهده أن يهدئ من روع الحاكم « ليوناتو » ويجبر بخاطره ، كما بذل كل ما في وسعه لإقناعه بأن ابنته « هيرو » بريئة ، وأن هناك شيئًا غامضًا في موضوع هذا الاتهام الظالم الذي أعلنه « كلوديو » . واقترح القسيس أن يحل هذا الموضوع بمعرفته وطبقًا لخطة وضعها بنفسه .. وهي أن يعلن الحاكم « ليوناتو » أن ابنته «هيرو» قد ماتت نتيجة لاتهامها في شرفها.. وأن يبني لها مقبرة خاصة.



وكان القسيس يرى أن هذه الخطة ستجعل « كلوديو » يحس بالندم باعتباره المسئول عن موتها .

ووافق « بينيدك » على تلك الخطة ، وحاول من جانبه أن يقنع «ليوناتو » بقبول هذه الفكرة ، ووعده بألا يبوح بهذا السر للأمير أو لـ «كلوديو» بالرغم من الصداقة الحميمة التي تربطه بهما .

وبعد أن اقتنع « ليوناتو » بهذه الخطة التي رسمها القسيس الطيب ، خرج هو وابنته وتوجها إلى القصر .. كما خرج القسيس أيضًا ، وظل «بينيدك» و«بياتريس» وحدهما .

* * *

- قال «بينيدك» : والآن يا بياتريس .. هل تسمحين لي بأن أعترف بأن حبك كان يتسلل إلى قلبي بالتدريج.. وكان يزداد يومًا بعد يوم .. وكم يسعدني لو أسمع رأيك .

قالت « بياتريس » والدموع تترقْرق في عينيها : إني حزينة .. وأكاد أموت من شدة الحزن .. لقد اتهمت ابنة عمي زورًا في شرفها .. وأنا عاجزة لا أستطيع أن أفعل شيئًا لكي أردَّ لها شرفها وسمعتها الطيبة .

وأقسم « بينيدك » بشرفه أنه على استعداد أن يفعل أي شيء تطلبه لكي يساعدها في هذا السبيل . وهنا توقفت « بياتريس » عن البكاء وقالت بحزم : لو كنت تحبني حقًّا كما تقول .. فإني أطلب منك شيئًا واحدًا .. أطلب منك أن تقتل « كلوديو » الذي طعن ابنة عمي في شرفها ظلمًا ..!

فوجىء «بينيدك» بهذا الطلب الذي لم يكن يتوقعه أبدًا.. فقال متلعثمًا: ولكنك يا « بياتريس » تعلمين أن « كلوديو » هو أعز أصدقائي .. فكيف لي أن أقتله ..؟!

قالت « بياتريس » : تقتله لأنه إنسان ظالم طعن فتاة شريفة عفيفة في شرفها .. فأنا واثقة من شرف وعفة ابنة عمي المسكينة ثقتي في نفسي .. وكم أتمنى لو كنت رجلاً حتى أستطيع أن أنتقم من هذا الرجل الذي لوَّث شرف هذه الفتاة بهذا الاتهام الظالم ! .. فإذا كنت تريد أن تبرهن على حبك لي .. فنفذ ما طلبته منك .. هذه هي العدالة .. ومن النبل والشجاعة أن تساعد هذه الفتاة الشريفة المسكينة على استعادة سمعتها الطيبة .

وعندئذ قال « بينيدك » باقتناع : إنك فتاة نبيلة يا « بياتريس » .. وأنا أقدر موقفك .. وأصدق كل كلمة تقولينها .. وأعدك بشرفي بأني سأطلب من «كلوديو» أن يبارزني دفاعًا عن شرف وسمعة ابنة عمك .

* * *

- على الفور توجه « بينيدك » إلى الأمير و« كلوديو » ليطلب منهما مبارزته بسبب ما ألحقاه بسمعة الفتاة البريئة « هيرو » ابنة « ليوناتو » .. وهناك وجد الحاكم « ليوناتو » يعاتب كلًّا من الأمير و« كلوديو » على توجيه هذا الاتهام الظالم إلى ابنته .. وهو الاتهام الذي أدى إلى موتها من شدة حزنها .. ولذلك فهو يطلب مبارزتهما .

غير أن كلًّا من الأمير و« كلوديو » امتنع عن مبارزة « ليوناتو » احترامًا لسنه وتقديرًا لحزنه على ابنته . وهنا تقدم « بينيدك » ، ودعا الأمير و«كلوديو» إلى المبارزة دفاعًا عن تلك الفتاة البريئة التي طعنت في شرفها وسمعتها .

اندهش الأمير و« كلوديو » من موقف صديقهما « بينيدك » .. وقال الأمير : من الواضح أن «بياتريس» هي التي حرَّضته .. لقد وقع «بينيدك» في حبها فعلاً !

وقبل أن ينشب هذا القتال الذي لا يعرف أحد عقباه ، حدثت مفاجأة غيَّرت كل المواقف .. فقد شاءت عدالة السماء أن تقدم الدليل القاطع على براءة « هيرو » من الاتهام الظالم الذي وجه إليها .. وفوجئ الجميع بحضور «بوراشيو» مقبوضًا عليه ، بعد أن سُمِعَ وهو يتحدث إلى أحد أصدقائه عن قيامه بتنفيذ الخطة الشريرة التي رسمها له «دون جون».

واعترف « بوراشيو » أمام الجميع بأنه طلب من الوصيفة «مارجريت» أن ترتدي ملابس سيدتها « هيرو » وأن تتحدث إليه من النافذة . وعندما شاهد الأمير و« كلوديو » هذه الفعلة الدنيئة ، اعتقدا أن التي كانت تحادثه هي «هيرو» وليست وصيفتها « مارجريت » التي ارتدت ملابسها .

وهكذا لم يعد هناك أدنى شك في براءة وطهارة « هيرو » التي اتهمت ظلمًا..

وعندما علم الشرير « دون جون » بأن خطته الدنيئة قد اكتشفت ، لاذ بالفرار من « مسينا » حتى يتقي غضبة أخيه الأمير .

أما « كلوديو » فقد وقعت عليه هذه الأحداث وقوع الصاعقة ، وشعر بالحزن الشديد ، وأوشك إحساسه بالندم أن يمزق قلبه .. ولذلك فقد تقدم بكل خضوع إلى « ليوناتو » وقال إن تسرعه في توجيه هذا الاتهام الأرعن إلى ابنته الشريفة العفيفة « هيرو » هو السبب في موتها حزنًا .. وإنه لذلك يطلب العفو عنه ويقبل أي عقاب يوقعه « ليوناتو » عليه للتكفير عن هذا الخطأ .

وعندئذ قال الحاكم « ليوناتو » : إن العقاب الوحيد الذي سأوقعه عليك هو أن تقبل الزواج من ابنة عم « هيرو » .. فهي فتاة ثرية وهي الوريثة الوحيدة لي بعد موت ابنتي « هيرو » المسكينة !

فقال « كلوديو » على الفور : إن أية فتاة في الدنيا لن تعوِّضني عن حبيبتي « هيرو » .. ومع ذلك فإني أقبل الزواج بابنة عمها بالرغم من أني لا أعرفها ولم أشاهدها .. ما دام هذا هو قرارك في عقابي !

* * *

- وفي اليوم التالي توجه الجميع إلى الكنيسة مرة أخرى لعقد قران «كلوديو» على العروس التي اختارها له « ليوناتو » .. ووقف « كلوديو » بجانب العروس التي كانت تغطي وجهها فإذا بها « هيرو » نفسها .. وكاد قلب «كلوديو» يطير من شدة الفرح عندما رآها حية أمام عينيه .

وقال الأمير : كنت أظن أن « هيرو » قد ماتت كما قال أبوها .

فقال « ليوناتو » : لقد ماتت أو اعتبرت ميتة عندما كان هذا الاتهام الظالم موجهًا إليها .. وعادت حية عندما ظهرت براءتها واستعادت شرفها وسمعتها الطيبة !

وعندما انتهى القسيس من عقد قران العروسين الحبيبين.. تقدم «بينيدك» إلى القسيس وطلب منه أن يعقد قرانه على حبيبته « بياتريس » .

واندهش الأمير من تلك الخطوة المفاجئة التي أقدم عليها «بينيدك».. وقال الأمير ضاحكًا إنه قد رسم تلك الخطة المرحة لإيهام « بينيدك » بأن «بياتريس» واقعة في حبه وإيهام « بياتريس » بأن « بينيدك » واقع في حبها ..

فإذا بتلك الخطة تنقلب إلى حقيقة واقعة ، ووقع كل منهما في غرام الآخر بطريقة فعلية .

وعاد المرح مرة أخرى، فقال «بينيدك» مازحًا إنه سيتزوج « بياتريس» لأنها ستموت إذا لم يعلن حبه لها .. وقالت « بياتريس » مازحة إنها تقبل الزواج من « بينيدك » رحمة به لأنه سيموت إذا لم تعلن حبها له !

وكانت الخاتمة السعيدة لهذه القصة هي إعلان القبض على « دون جون » الشرير قبل أن ينجح في الهرب من « مسينا » ليفلت من العقاب كجزاء عادل على أفعاله الشريرة !

* * *

هاملت .. أمير الدنمارك

HAMLET : THE PRINCE OF DENMARK
BY : WILLIAM SHAKESPEARE

حزن الأمير «هاملت» على أبيه ملك الدنمارك ميتة مفاجئة .. أما أمه «الملكة جيرترود» فقد تزوجت «كلوديوس» شقيق الملك المتوفى بعد أقل من شهرين من تاريخ الوفاة .. وكان هذا التصرف الغريب مثار استياء الناس ، وأشعل في قلب هاملت مزيدًا من نار الحزن والأسى .

كان « كلوديوس » قد أعلن أن أخاه الملك السابق قد مات بعد أن لدغته حية رقطاء ، وثار الشك في قلب « هاملت » في أن عمه « كلوديوس » هو الحية التي لدغت الملك فقتلته ، ولكنه كان لا يجد أي دليل أو برهان على قيام عمه بارتكاب تلك الجريمة في حق أخيه الملك السابق ، سوى إسراع هذا العم بالزواج من الملكة الأرملة وجلوسه على عرش البلاد إلى جانبها.

وكاد « هاملت » يصاب بالجنون من كثرة التفكير في هذا الأمر ، وشكه في مدى إخلاص أمه « الملكة جيرترود » لذكرى أبيه الملك الراحل .. وهل كانت الملكة على علم بتلك الجريمة ؟ .. وهل اشتركت فيها .. وكيف ولماذا أسرعت بالزواج من شقيق زوجها الراحل بعد تلك الفترة القصيرة من موت الملك العطوف الذي كان يُكنُّ لها كل حب واحترام .. ولماذا قبلت الـزواج من « كلوديوس » ، بالرغم مما عرف عنه من دمامة وقدرة على فعل الشر ...؟!

فقد « هاملت » إحساسه بالبهجة وأصيب بحالة اكتئاب دائم ، وأصبح يرى الدنيا كحديقة قبيحة الشكل، ماتت فيها كل الزهور، وامتلأت بأعشاب ضارة لا قيمة لها وخالية من أي جمال .

وحاولت أمه كما حاول زوجها الجديد أن يبعدا « هاملت » عن أحزانه ، وأن يصرفاه عن التفكير في ذكرى أبيه ، ولكن دون جدوى ، ولم يفلحا تبديد أحزان « هاملت» ولو للحظة واحدة .. وظل « هاملت » يعاني من شدة الحزن والأسى . ولم يخلع ملابسه السوداء التي ظل يرتديها حدادًا على وفاة أبيه ، بل ولم يخلع هذه الملابس يوم الاحتفال بزواج أمه من عمه «كلوديوس» الشرير .

* * *

وفي يوم ما سمع « هاملت » أن بعض جنود الحراسة يقولون إنهم رأوا شبحًا يظهر فوق أسوار القصر الملكي ، وأن هذا الشبح شديد الشبه بالملك السابق ، وإنه يرتدي ملابس حربية مماثلة تمامًا للملابس التي كان يرتديها الملك السابق.. وأن «هوراشيو» صديق « هاملت » الحميم ، و«مارسيلوس» ضابط الحراسة وهو صديق آخر ، قد شاهدا هذا الشبح الذي يظهر فوق أسوار القصر عندما تدق الساعة اثنتا عشرة معلنة منتصف الليل ، ثم يختفي عندما يصيح الديك معلنًا إشراق نور الفجر .

وقال « هوراشيو » لصديقه « هاملت » إنهم حاولوا التحدث إلى هذا الشبح ولكنه كان لا يرد عليهم ، وينظر إليهم بنظرات تعبر عن حزن عميق .

ارتاع « هاملت » عندما سمع هذه الحكاية ، وصمم على أن يرى هذا الشبح الذي يشبه أباه الراحل ، وعندما أقبل الليل ، ذهب « هاملت » إلى

نقطة الحراسة واصطحب معه صديقيه «هوراشيو» و«مارسيلوس» .. وكان الجو باردًا وعاصفًا تزأر فيه الرياح .. وظلوا جميعًا منتظرين حتى انتصف الليل ، وظهر الشبح فوق أسوار القصر .. وكان الشبح يشبه أباه إلى حد كبير .. وعندئذ صاح « هاملت » بقلب يرتجف من شدة الاضطراب : أبي .. أبي العزيز .. لماذا تترك قبرك حيث دفنوك بسلام .. ولماذا تعود إلى الأرض في ضوء القمر.. وماذا عليَّ أن أفعله لتستعيد روحك الهدوء والسكينة والسلام.. أبي العزيز ماذا يقلقك ؟!

في البداية لم ينطق الشبح بكلمة واحدة ، ولكنه أشار إلى « هاملت » لكي يتبعه وكأنه يريد أن يتحدث إليه على انفراد.. فتقدم « هاملت » ليعتلي السور، ولكن صديقيه حاولا عبثًا أن يمنعاه خوفًا على حياته من السقوط في البحر من هذا الارتفاع الشاهق ، وتقدم « هاملت » بكل شجاعة ليطيع رغبة شبح والده .

وعندما أصبحا منفردين تكلم الشبح بكل وضوح .. وقال «لهاملت» إنه مات قتيلًا .. وإن قاتله هو «كلوديوس» الذي استولى على عرشه واستولى على زوجته «جيرترود» .. وأن جريمة القتل قد ارتكبت حين كان نائمًا في حديقة القصر وقت القيلولة ، فقد تقدم أخوه «كلوديوس» وصب في أذنيه سائلًا سامًّا قضى على حياته فورًا .. وأخيرًا طلب الشبح من «هاملت» أن ينتقم من عمه القاتل شر انتقام .. كما طلب منه ألا يسيء إلى أمه ، بل يتركها لعدالة السماء وتأنيب الضمير ..

ثم اختفى الشبح ، ولم يعد إلى الظهور مرة أخرى .

* * *



باح «هاملت» بسر هذه المقابلة التي تمت بينه وبين شبح والده لصديقه «هوراشيو» .. وطلب منه أن يحتفظ بهذا السر ولا يبوح به إلى أي شخص آخر إلى أن يتم الانتقام من قاتل أبيه الذي اغتصب عرشه .. واضطر «هاملت» إلى التظاهر بأنه قد أصيب بجنون مفاجئ حتى لا تظهر عليه أية بادرة توحي بالانتقام الذي يدبره .

وتمادى «هاملت» في التظاهر بالجنون ، فأهمل ملابسه وأصبح ينطق بكلمات غامضة وغير مهذبة ، حتى اقتنعت أمه واقتنع زوجها الملك «كلوديوس» بأن «هاملت» قد أصيب بالجنون فعلًا .. ولكن الملك والملكة اعتقدا أن هذا الجنون الذي أصيب به « هاملت » كان بسبب حبه للفتاة الجميلة «أوفيليا» ابنة «بولونيوس» رئيس الوزراء ، والتي كان «هاملت» يحبها حبًّا جمًّا .

واضطر «هاملت» أثناء تظاهره بالجنون أن يعامل «أوليفيا» بقسوة شديدة ثم يعبر لها عن حبه وهيامه بها في الوقت نفسه .. ولأن «أوليفيا» كانت فتاة نبيلة طيبة ، فقد حافظت على حبها له وغفرت له كل ما كان يرتكبه في حقها؛ لأنها اعتقدت هي الأخرى أن حبيبها «هاملت» قد أصيب باضطراب عقلي.

وكلما كان الوقت يمر دون أن يجد «هاملت» طريقته لتنفيذ انتقامه كان يؤنب نفسه تأنيبًا شديدًا ويعتبر ذلك تقصيرًا في حق والده .. غير أن كثرة التفكير في طريقة الانتقام كانت ترهق عقله وتحطم أعصابه ، فقد كانت عملية قتل الملك عملية صعبة وتكاد تكون مستحيلة، فالملك محاط دائمًا بحراسه، وحتى في الوقت الذي يتخلى فيه الملك عن حراسه ، فإنه يكون في حجرة الملكة «جيرترود» أم «هاملت» وكان من الصعب على «هاملت» أن يقتل الملك على مرأى من أمه التي لا يريد أن يسيء إليها تنفيذًا لوصية الشبح.

ثم كان هناك شيء آخر على درجة كبيرة من الأهمية .. فقد كانت عملية قتل إنسان عملية كريهة لا تليق بشخص مثل «هاملت» يتميز بطباع نبيلة ومشاعر إنسانية طيبة .. ورويدًا رويدًا ، بدأ الشك يساور عقل « هاملت » بين حين وآخر .. وأخذ يحدِّث نفسه ويقلب الموضوع على أوجهه المختلفة .. ولاحت في ذهنه فكرة جديدة .. فمن الجائز أن يكون الموضوع برمته فكرة وسوس بها الشيطان في نفسه .. وربما يكون هذا الشبح الذي رآه وكلمه شيطانًا تنكر في صورة والده ليوعز إليه بجريمة قتل نفس بريئة ..

وأخيرًا حسم « هاملت » هذا الشك ، وأقنع نفسه بأنه لابد أن يتأكد أولًا وببرهان قاطع، من أن عمه الملك « كلوديوس » هو الذي قتل والده واستولى على عرشه كما استولى على الملكة .

* * *

ولاحت الفرصة أمام « هاملت » للحصول على هذا البرهان القاطع عندما وصلت إلى القصر فرقة من الممثلين على رأسها فنان كان صديقًا «لهاملت».. وراح هذا الفنان يعرض أمام «هاملت» أسماء وأنواع المسرحيات التي تستطيع الفرقة أن تقدمها ليختار واحدة منها .. وهنا سنحت في ذهن «هاملت» فكرة مسرحية تصور أحداثها جريمة قتل مماثلة تمامًا لجريمة القتل التي ارتكبها الملك «كلوديوس» ، حيث قتل أخاه واستولى على عرشه وزوجته .

وتدور أحداث تلك المسرحية التي وضع «هاملت» فكرتها في قصر دوق في مدينة «فيينا» .. وكان اسم هذا الدوق «جونزاجو» وكانت زوجته الجميلة تسمى « بابتستا » .. وبينما كان الدوق نائمًا في حديقة القصر ساعة القيلولة ،

تقدم منه أخوه «لوسيانوس» ووضع في أذنه سائلًا سامًّا قضى على حياته ، ثم استطاع القاتل أن يفوز بحب أرملة الدوق ويتزوجها .

وهكذا انعقد الحفل لمشاهدة هذه المسرحية ، وحضر الملك « كلوديوس » والملكة «جيرترود» وكل رجال البلاط الملكي .. وبدأ العرض التمثيلي ، بينما كان «هاملت» مركزًا نظرات عينيه خلسة على المكان الذي يجلس فيه الملك والملكة ليرى أثر أحداث المسرحية عليهما ..

وعندما تقدم الممثل الذي يؤدي دور «لوسيانوس» إلى الدوق النائم في الحديقة ليضع السائل في أذنيه ، انتفض الملك «كلوديوس» فجأة وطلب إيقاف التمثيل وإضاءة الأنوار ، مدعيًا أنه أصيب بمرض مفاجئ وغادر هو والملكة قاعة العرض فورًا .

وهنا تأكد « لهاملت » أن عمه «كلوديوس» هو الذي قتل أباه ، وهو الذي استولى على قلب أمه .. وقال « هاملت » لصديقه « هوراشيو » إنه حصل أخيرًا على البرهان القاطع لتلك الجريمة .. وأن شبح أبيه كان صادقًا في كل ما قاله .. وأقسم « هاملت » أن ينتقم من عمه شر انتقام .

وهنا جاء أحد رجال القصر وأخبر « هاملت » بأن أمه الملكة تستدعيه لمقابلة عاجلة في حجرتها .. وكانت هذه المقابلة بناء على طلب الملك «كلوديوس» الذي كان يريد أن يعرف ما سوف يدور بين الملكة وابنها من حديث ، فطلب من رئيس الوزراء «بولونيوس» أن يختفي وراء ستار في حجرة الملكة ليتسمع خفية إلى كل الحديث الذي سيتم بين الملكة و«هاملت».

وعندما دخل « هاملت » إلى الحجرة ، بادرته الملكة باتهامه بأنه قد أساء إليها وأساء إلى الملك إساءة بالغة .. وهنا صارح « هاملت » أمه بكل شيء ،

وواجهها بكل شكوكه التي تأكدت الآن بشكل قاطع . وأصيبت الملكة برعب شديد ، وخشيت أن يصيبها « هاملت » بأذى .. ولذلك فقد صاحت طالبة النجدة .. وهنا صاح «بولونيوس» رئيس الوزراء من وراء الستارة التي كان يختفي خلفها طالبًا إنقاذ الملكة ، ولكن « هاملت » استل سيفه بسرعة وأغمده في قلب هذا الشخص الذي يختفي وراء الستارة ظنًّا منه أنه الملك «كلوديوس» وفوجئ «هاملت» بأن القتيل هو «بولونيوس» رئيس الوزراء.

وواصل « هاملت » الحديث مع أمه .. مذكرًا إياها بخيانتها لذكرى أبيه.. وقبولها الزواج من قاتل أبيه بعد فترة قصيرة من مقتله .. وأن هذه الأفعال الدنيئة التي ارتكبتها تغضب الله ولا ترضي أحدًا من الناس .

وفجأة ظهر أمام «هاملت» شبح والده الذي أخذ يذكره بضرورة الانتقام من القاتل ويوصيه بألا يسيئ معاملة أمه ويتركها لعدالة السماء . واعتقدت الأم أن « هاملت » عاودته حالة الجنون فأخذ يتحدث إلى الهواء.

وأخيرًا طلب « هاملت » من أمه أن تطلب الغفران من الله ، وأن تبدأ حياة جديدة بعيدة عن زوجها القاتل الدنيء . فوعدته الأم بذلك بعد أن أدركت مدى الخطايا التي ارتكبتها في حق نفسها وفي حق زوجها السابق .. وانتهت المقابلة الحاسمة بين « هاملت » وأمه .

* * *

أصدر الملك « كلوديوس » أمره بنفي « هاملت » إلى إنجلترا التي كتانت تحت حكم الدنمارك في ذلك الزمن ، على أن يغادر البلاد فورًا على ظهر سفينة وتحت حراسة اثنين من رجال البلاط الملكي . وأعطاهما الملك رسالة سرية ممهورة باسمه يأمر فيها بقتل « هاملت » فور وصوله إلى إنجلترا .

وأثناء إبحار السفينة استطاع « هاملت » أن يعثر على تلك الرسالة ويقرأ مضمونها الغادر ، فأزال اسمه المكتوب وكتب بدلًا منه اسمي رجلي البلاط الملكي اللذين سيقدمان هذه الرسالة إلى حاكم إنجلترا المكلف بتنفيذ أمر القتل .

وقبل أن تقترب السفينة من شواطئ إنجلترا ، هاجمتها إحدى سفن القراصنة ، وبدأت معركة بحرية بين السفينتين ، اشترك فيها « هاملت » بكل شجاعة وإقدام ، وقفز « هاملت » إلى سفينة القراصنة لمحاربتهم ، ولكن القراصنة تكاثروا عليه وأسروه .. وفي تلك الأثناء استطاعت السفينة الأخرى أن تفلت هاربة من المعركة وتركت « هاملت » ليواجه مصيره على سفينة القراصنة .

وعندما وصلت السفينة الدنماركية إلى إنجلترا ، قدم رجال البلاط الملكي الرسالة التي كانا يحملانها إلى حاكم إنجلترا ، الذي أمر بقتل الرجلين فورًا تنفيذًا للأمر المكتوب في تلك الرسالة .

أما القراصنة فقد علموا أن أسيرهم هو الأمير « هاملت » المحبوب والمعروف بنبله وشجاعته ، فاعتذروا له وتوجهوا به إلى شواطئ الدنمارك مرة أخرى .. وسار « هاملت » على قدميه عائدًا إلى القصر الملكي .. وفي الطريق إلى القصر ، شاهد « هاملت » منظرًا مفجعًا ملأ قلبه بكل مشاعر الحزن والأسى .

* * *

كان المشهد الحزين جنازة يذرف المشتركون فيها دموعًا غزيرة .. ولم يكن «هاملت» يتصور أبدًا أن الراقدة في النعش المحمول هي حبيبته الجميلة

«أوفيليا» ! .. لقد ماتت المسكينة ميتة محزنة .. فبعد أن مات أبوها مقتولًا بيد حبيبها ، أصيبت بالجنون وفقدت عقلها وذاكرتها تمامًا .. فكانت تتجول في القصر وهي تحمل الورود والأزهار توزعها على الجميع رحمة على والدها .. وكانت تنشد أغاني ذات ألحان حزينة تتحدث عن الموت وعن الحب اليائس وعن فقدان الأمل .

وذات يوم تسلقت « أوفيليا » شجرة الصفصاف التي تتدلى أغصانها على صفحة الجدول الذي تحيطه الزهور والورود من كل جانب ، وأخذت تنشد أغانيها الحزينة المؤسية .. وانكسر بها فرع الصفصاف وسقطت المسكينة وماتت غريقة في قاع الجدول .

وها هي جنازتها تسير بخطوات حزينة متمهلة .. يشترك فيها الملك والملكة وكل رجال القصر ، ويتقدمها أخوها « ليرتيس » الذي كاد قلبه ينفطر لشدة ما يعانيه من حزن ولكثرة ما يذرفه من دموع .

وعندما وصلت الجنازة إلى القبر الذي ستدفن فيه الحبيبة الجميلة «أوفيليا» رأى «هاملت» أمه الملكة وهي تنثر فوق القبر باقة من أجمل الزهور والورود، وسمعها وهي تقول : هذه الظهور الجميلة رحمة على روح الجميلة «أوليفيا» .. وكم كنت أتمنى أن أنثر هذه الزهور فوق سرير عرسك .. وأراك وأنت زوجة لحبيبك وابني الحبيب « هاملت » !

وعندما استقر نعش « أوفيليا » داخل القبر ، فوجئ الجميع بأخيها «ليرتيس» وهو يقفز إلى القبر ويطلب من حفار القبور أن يدفنه معها .. وعندئذ لم يحتمل « هاملت » كل هـذه المشاعر الحزينة ، فقفز هو الآخر إلى داخل القبر وطلب أن يدفن مع حبيبته الراحلة .

وبعد انتهاء مراسم الجنازة والدفن ، اعتذر « هاملت » لصديقه «ليرتيس» لأنه لا يتصور أن هناك أحدًا أكثر منه حزنًا على وفاة حبيبته «أوفيليا» .

* * *

اغتاظ الملك « كلوديوس » من عودة « هاملت » إلى القصر مرة أخرى ، ولذلك فقد عزم على تدبير مؤامرة يتخلص فيها من « هاملت » بطريقة لا يشك فيها أحد .. وعرض على كل من « هاملت » و«ليرتيس» أن يتبارزا في مباراة ودية .. ولكنه أوعز إلى « ليرتيس » أن ينتهز هذه الفرصة لكي ينتقم من « هاملت » الذي تسبب في قتل أبيه وفي موت أخته .. وذلك بأن يستعمل سيفًا ذا طرف مدبب ومسموم يؤدي إلى قتل « هاملت » بمجرد أن يصاب بجرح صغير .. وبهذه الطريقة لن يشك أحد في أن « هاملت » قد مات مقتولًا بالسم .

وفي اليوم المحدد لمباراة المبارزة الودية ، حضر الملك والملكة وكل رجال البلاط الملكي ، وبدأت المباراة دون أن يدري « هاملت » بما دبر له من غدر .

وكلما كان يحقق « هاملت » نقطة نجاح وتفوق أثناء المبارزة ، كان الملك يتظاهر بالفرح والسعادة ، واغتاظ «ليرتيس» من ثناء الملك على « هاملت » فانتهز فرصة سانحة وضرب هاملت بطرف السيف المدبب المسموم وجرحه جرحًا بسيطًا ولكنه كان كافيًا للقضاء عليه لا محالة .. وعندئذ أصبح «هاملت» أكثر شراسة في المبارزة حتى أوقع السيف من يد «ليرتيس» ثم تناول هذا السيف المدبب ، وجرح به «ليرتيس»جرحًا مماثلًا !

وفي تلك اللحظة ، صاحت الملكة بأنها ستموت مسمومة بعد أن شربت من كأس به شراب مسموم كان الملك « كلوديوس » قد أعده « لهاملت »

ليشربه كتهنئة لفوزه في المبارزة إذا تمت دون أن يتمكن « ليرتيس » من ضربه بطرف السيف المدبب المسموم .. ولم تكت الملكة على علم بما يحتويه هذا الكأس من شراب مميت .

وهنا أحس « هاملت » بخيوط المؤامرة الدنيئة وهي تتكشف أمامه خيطًا بعد خيط .. فأمر الحراس بإغلاق أبواب القصر حتى يحقق في هذه المؤامرة وتبدو الحقيقة أمام الجميع .

وتحامل « ليرتيس » على نفسه وهو يعاني سكرات الموت ، واعترف أمام «هاملت» بأن الملك «كلوديوس» هو الرأس المدبر لهذه المؤامرة .. وأنه هو الذي أعطاه السيف المدبب المسموم .. وأن الجرح الذي أصيب به «هاملت» سيؤدي إلى موته في أقل من ساعة.. وقبل أن يلفظ «ليرتيس» أنفاسه الأخيرة، توسل إلى «هاملت» أن يسامحه وأن يغفر له هذه الخيانة .

وفي لحظة خاطفة تناول « هاملت » السيف المسموم ، وغرسه بكل قوة في قلب الملك الخائن .. ثم انهار « هاملت » وسقط على الأرض وهو يجود بآخر أنفاسه من الحياة .

ولم يحتمل «هوراشيو» صديق «هاملت» الحميم هذا الموقف المأساوي الحزين وتناول السيف المسموم محاولًا أن يقتل به نفسه ليموت بجوار صديق عمره .. ولكن « هاملت » النبيل توسل إليه أن يبقى حيًّا ، ليحكي للعالم هذه القصة المحزنة .. وعن طريق « هوراشيو » عرفنا كل هذه الحقائق .

* * *

المؤلفون الذين ورد ذكرهم
في هذا الكتاب

ROBERT LOUIS STEVENSON ** روبرت لويس ستيفنسون

- يعتبر واحدًا من أعظم وأشهر الأدباء الإنجليز في القرن التاسع عشر، ولد في 13 نوفمبر 1850 بمدينة أَدِنْبَرَة باسكتلندا ، ومات في فايليما ساموا بالبحار الجنوبية في 3 ديسمبر 1894 .

- بالرغم من حياته القصيرة فقد ترك تراثًا ضخمًا من الروايات الرومانسية المحبوبة والمقالات والكتب عن أدب الرحلات والقصائد الشعرية .

- عاش طوال حياته مريضًا بالسل ، وكان يضطر للقيام برحلات إلى المناطق والبلاد الأخرى الأكثر دفئًا لكي يخفف أثر نوبات هذا المرض الصدري ، ومن هنا تفتحت موهبته في تأليف كتب أدب الرحلات .

- كان أبوه مهندسًا بحريًا ، وكان من المتوقع أن يدرس الهندسة ليعمل في نفس المهنة التي كان يشتغل فيها والده ، إلا أن ضعف صحته جعله يكتفي بدراسة القانون في جامعة أدنبرة حتى يتخرج محاميًا أو للعمل في القضاء ، إلا أن هوايته للشعر والكتابة الأدبية هيأت له فرصة الاتصال بالكتّاب والأدباء الإنجليز الذين كانوا مشهورين في عصره ، فأعجبوا به وشجعوه على التفرغ لإنتاجه الأدبي حتى تبوأ المكانة المرموقة في الأدب الإنجليزي .

- في عام 1876 التقى بسيدة أمريكية هي « فاني اسبورن » التي كانت تكبره بنحو عشر سنوات فأحبها ، وعندما سافرت عائدة إلى وطنها في ولاية كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية ، سافر إليها ليلحق بها ، وركب سفينة مهاجرين من إنجلترا إلى نيويورك ، وقد استغرقت الرحلة البحرية أحد عشر يومًا أعقبتها رحلة بالقطار من نيويورك إلى سان فرانسيسكو استغرقت اثني عشر يومًا . وتزوج حبيبته عام 1880 . ويقول مؤرخو الأدب الإنجليزي إن هذا الزواج كان فاتحة خير لأعظم فترات حياة روبرت لويس ستيفنسون خصوبة فكرية وإنتاجًا أدبيًا .

- ومن أشهر كتب أدب الرحلات التي ألفها: « مغرم بالسياحة» و«رحلة عبر السهول» و« سفريات مع حمار » و«رحلة داخلية» و«دراسات طريفة عن الكتب والرجال» و« حاشية للتاريخ » و« البحار الجنوبية » .

- ومن أشهر الروايات الأدبية التي حازت شهرة عالمية : «جزيرة الكنز» و«الأمير أوتو » و« حديقة أشعار الطفل » و«دكتور جيكل ومستر هايد » و«المخطوف » و« السهم الأسود » . كما كتب العديد من القصائد الشعرية والقصص القصيرة .. وقد ذاعت معظم هذه الأعمال في مختلف أنحاء العالم وترجمت إلى عديد من اللغات ، كما أنتجت في أفلام سينمائية ناجحة.

- قام برحلته الأخيرة مع زوجته إلى جزر البحار الجنوبية في المحيط الهادي، وزار ثلاثًا وثلاثين جزيرة إلى أن استقر به المقام في جزيرة ساموا حيث مات فيها قبل أن يفرغ من كتابة روايته الأخيرة « القديس إيفز » .

* * *

** ألكسندر دوماس ALEXANDER DUMAS

- يعتبر ألكسندر دوماس من أشهر الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر. ولد في 24 يوليو 1802 ومات في 5 ديسمبر 1870 .. واشتهر باسم «ألكسندر دوماس الأب» . تمييزًا له عن ابنه الأديب الفرنسي الشهير «ألكسندر دوماس الابن» .

- كان رائدًا من رواد الحركة الرومانسية في الأدب الفرنسي. واشتهر بمسرحياته ورواياته الأدبية المليئة بالحركة والتي تدور حول المغامرات والأحداث التاريخية . وقد تأثر بمسرحيات وليم شكسبير وبروايات سير والتر سكوت . لذلك تتميز أعماله بالصراعات الدرامية ، والتقلبات المفاجئة في الأحداث وفي مواقف الشخصيات ، والمصادفات المثيرة حيث تتشابك الأحداث في نسيج مبهر يشد مشاهدي مسرحياته وقراء رواياته الأدبية .

- تجلت مواهبه الأدبية في مطلع شبابه ، بالرغم من أنه لم ينل إلا حظًّا ضئيلاً من التعليم ، أهّله للحصول على وظيفة متواضعة لدى دوق أورليانز الذي أصبح فيما بعد ملكًا على فرنسا باسم « لويس فيليب » .

- كان كثير السفر والترحال ، واشترك في كثير من المغامرات المثيرة ، منها اشتراكه في حملات « غاريبالدي » في سبيل توحيد إيطاليا . وقد

استفاد من هذه المغامرات في صياغة العديد من أعماله المسرحية والأدبية وتأليف العديد من كتب أدب الرحلات وقصص الأطفال .

- من أشهر رواياته « الفرسان الثلاثة » التي كتبها سنة 1844 وكانت سببًا في شهرته العريضة ، ورواية « الكونت دي مونت كريستو » التي نشرها في 12 مجلدًا خلال عامي 1844 ، 1845 ، ورواية «الزنبقة السوداء» التي كتبها سنة 1850 .. وقد حازت هذه الروايات شهرة عالمية وأخرجت في أفلام سينمائية ذائعة الصيت. هذا بالإضافة إلى عديد من الدراسات وكتب السيرة الذاتية وقصص الأطفال . وقد وصل عدد مؤلفاته إلى حوالي 250 كتابًا .

- وبالرغم من أن مؤلفاته وكتبه قد حققت له دخلاً ماليًا كبيرًا إلا أنه كان مسرفًا ومبذرًا ، فمات فقيرًا معدمًا بعد أن بدد كل أمواله .

* * *

نبذة عن الأدب المصري القديم

- كان هناك اعتقاد راسخ لدى العلماء بأن الحضارة الإغريقية القديمة هي أم الحضارات الراقية ، إلى أن تمكن العالم الفرنسي «شامبليون» من فك رموز وأسرار الكتابة الهيروغليفية ، وأصبح من السهل معرفة كل ما كتبه لنا المصريون القدماء على جدران المعابد والمقابر والأهرام والمصاطب والمسلات واللوحات والنُّصُب التذكارية .. وما دوَّنوه أيضًا على مئات الآلاف من أوراق البردي من علوم وفنون وآداب .. وعندئذ أعاد العلماء النظر في مكانة الحضارة الإغريقية بين كل الحضارات القديمة والحديثة ، وأعلنوا الحقيقة التي أصبحت واضحة كالشمس ، وهي أن مصر القديمة هي أم الحضارات جميعًا .

- لقد تبين بصفة قاطعة أن المصريين القدماء هم أول من ابتدع التعبير الأدبي، وأن مصر هي منبع الأدب والأعمال الأدبية الرفيعة المستوى ، وأن الأدب المصري القديم أقدم من الأدب الإغريقي بما يزيد على خمسة وعشرين قرنًا .

- وبالرغم من أن الأدب المصري القديم قد نشأ وترعرع في أحضان الدين والعقائد الدينية القديمة ، إلا أنه تطور بسرعة وأصبح يتناول شئون الحياة اليومية العادية للإنسان .. وتبوأت الأعمال الأدبية مكانة رفيعة في الفكر والحضارة المصرية القديمة .. وأدرك المصريون القدماء أن الأدب غذاء

للأرواح، وإشباع للنفوس الصافية ، وطريقة مثلى للتسامي بالتعبير وعلو المعاني .. وأصبح جمال الأسلوب وطلاوته فخرًا للكاتب المصري القديم ومحلًا لتقدير ومتعة القراء .

- وتبين للعلماء أيضًا أن الأدب المصري القديم لم يترك موضوعًا للحياة الإنسانية إلا وكان له فيه إنتاج متميز .. وقسموا الأعمال الأدبية المصرية القديمة حسب موضوعاتها إلى أقسام عدة هي باختصار شديد :

القصص والروايات والحواديت الشعبية .. والحكم والتعاليم الأخلاقية والتأملات الفلسفية .. والرسائل الأدبية (حيث ابتدع الكتاب المصريون القدماء فكرة تقسيم الرسالة إلى عنوان، وصيغة افتتاحية، وديباجة، وختام).. والمساجلات الأدبية التي تقوم على فكرة الحوار والنقاش بالأفكار والمواقف المتعارضة.. والمسرحيات والأشعار الدرامية.. والأغاني والأناشيد الدينية .. وأشعار المديح لتمجيد الملوك وانتصاراتهم الحربية .. وأغاني العمال .. وأغاني الفلاحين .. وأغاني الولائم والحفلات والأفراح الشعبية .

- أما بالنسبة للأعمال الأدبية التي تركها لنا قدماء المصريين في مجال القصص والروايات ، فقد قسمها المؤرخون وعلماء المصريات إلى مجموعات تتناول قصص الآلهة .. وقصص السحر والمعجزات .. وقصص المغامرات .

وقام العلماء والأدباء المحدثون بترجمة هذه القصص والروايات إلى الكثير من لغات العالم ، وعرف الناس في جميع أنحاء الأرض أن الأدب المصري القديم هو أقدم وأجمل الآداب التي تركتها لنا الحضارات القديمة.

- ومن قصص المغامرات ، اخترنا لكم قصة « الملاّح وجزيرة العجائب» التي قدمناها لكم في هذا الكتاب .

* * *

** دانييل ديفو DANIEL DEFOE

- ولد « دانييل ديفو » في لندن عام 1660م .. وكان أبوه جزارًا متوسط الحال ، لذلك فلم يستطع أن يكمل تعليمه .

- في شبابه كان شغوفًا بالسفر والترحال ، فطاف بمعظم أنحاء أوربا.. وعندما عاد إلى وطنه بعد إحدى رحلاته ، حاول أن يصبح «رجل أعمال» ولكنه فشل في ذلك فشلاً ذريعًا وخسر جميع أمواله .

- ثم أصبح شغوفًا بالعمل السياسي ، فكتب عددًا كبيرًا من المقالات السياسية لتأييد بعض الأحزاب .. ولكنه كان كثير التنقل بين الأحزاب السياسية التي يؤيدها ، وصادف في ذلك كثيرًا من حالات النجاح والفشل، وانتهى به الأمر إلى دخول السجن عدة مرات .

- في الستين من عمره ، بدأ « دانييل ديفو » نشاطه الأدبي بكتابة الروايات الأدبية .. وفي عام 1719م نشر روايته الأولى بعنوان « حياة روبنسون كروزو ومغامراته المدهشة » The Life and strange surprising adventures of Robinson Crusoe .

- ثم كتب رواية أخرى بعنوان « كابتن سنجلتون » Captain Singleton.

• ورواية ثالثة بعنوان « مول فلاندرز » Moll Flanders .

• ولكن الروايتين الأخـيرتين لم تحققا النجاح والشهرة والذيوع مثل رواية «روبنسون كروزو» التي خلّدت هذا المؤلف حتى الآن .

• ومعظم روايات « دانييل ديفو » تقوم على أحداث حقيقية حدثت في الواقع .. وبالنسبة لرواية « روبنسون كروزو » فهي تدور حول قصة حقيقية حدثت لرجل اسمه « ألكسندر لكليرك » عاش وحده في جزيرة نائية منعزلة لسنوات طويلة قبل أن يعود إلى وطنه في اسكتلندا .

• وقد اعتمد المؤلف على الأحداث الحقيقية لقصة هذا الرجل ، وأعاد صياغتها بأسلوب مبهر مملوء بالحيوية ليتناسب مع الأوصاف الشخصية التي يتميز بها « روبنسـون كروزو » بطل الرواية التي كتبها .. كما يتناسب أيضًا مع الأحداث التي صادفها هذا البطل في الجزيرة المنعزلة التي عاش فيها .

ومنذ نيف و275 سنة .. أي في الزمن الذي كتبت فيه هذه الرواية ، كانت معلومات العالم قليلة عن الجزر التي تقع في المناطق الاستوائية .. ومع ذلك فقد استطاع « دانييل ديفو » أن يصور لنا الجو العام للحياة في تلك الجزر ببراعة وتشويق ، بحيث ظلت مغامرات « روبنسون كروزو » تستهوي الملايين من القراء في مختلف أنحاء العالم حتى الآن .

* * *

** برناردين دي سان بيير

J.H. BERNARDIN DE SAINT PIERRE

- ولد في مدينة الهافر بفرنسا في 19 يناير 1727. وكانت أسرته تدعي الانتساب إلى النبيل الفرنسي « أوستاش دي سان بيير » فحرص منذ صغره على الانتساب إلى هذا اللقب الذي عرف به واشتهر . وكان في صباه يزين صدره بنياشين وأوسمة يصنعها بنفسه لتأكيد انتسابه لهذا اللقب .
- كان رقيق المشاعر وواسع الخيال ، ويحلم بعالم مثالي طاهر يتخلص فيه البشر من مثالبهم وعيوبهم الاجتماعية ، ويقوم على العدل والحرية وصفاء النفوس ونبل المشاعر الإنسانية والعودة إلى الطبيعة ببساطتها الساحرة .
- درس الهندسة وخدم بالجيش، ولكنه لم يطق ممارسة تلك الوظائف فحاول أن يعمل كمدرس حساب ، ولكنه توقف عن هذه المهنة أيضًا .. وانتهى به الأمر إلى حالة من الفقر المدقع ، فاعتزل الحياة الاجتماعية لما كان يراه فيها من ظلم وقسوة .
- كان كثير السفر والترحال ، لعله يجد في الدنيا مكانًا يتحقق فيه العدل وصفاء الحياة .. فسافر إلى روسيا وفنلندا وبولندا وألمانيا وأمريكا .. ثم رحل إلى جزيرة مدغشقر المواجهة لشرق أفريقيا ، وانتهى به المطاف في جزيرة « موريس » التي كتب عنها في روايته « الفضيلة - أو - بول وفرجيني » .. ثم عاد إلى فرنسا مرة أخرى ، وألف كتابًا في وصف مظاهر الطبيعة في الجزر التي زارها وعاش فيها ، ووصف مساوئ الاستعمار والاستعباد . ولكن هذا الكتاب لم يحقق ما كان ينشده من نجاح فازداد فقره وازدادت ديونه .

- ذاعت شهرته عندما أصدر روايته « بول وفرجيني » التي حققت نجاحًا جماهيريًّا واسع النطاق في جميع أنحاء فرنسا ، لدرجة أن الأسر الشعبية كانت تطلق اسم « بول » على مواليدها من الذكور ، واسم «فرجينى» على مواليدها من الإناث .

- في أعقاب صدور تلك الرواية التي تمجد الطبيعة وتطهر النفوس وتُدمع العيون من هول مآسي الحياة وأحزانها ، أصبح برناردين دي سان بيير من أشهر كتاب فرنسا .. وعيّنه الملك لويس السادس عشر مديرًا لحديقة النباتات ، ولمتحف التاريخ الطبيعي . وعندما نشبت الثورة الفرنسية فقد هذا المنصب ، إلى أن تولى نابليون بونابرت حكم فرنسا ، فكرمه وأنعم عليه بوسام الشرف .

- وفي سنة 1852 احتفلت الحكومة الفرنسية بإزاحة الستار عن تمثال له مصنوع من البرونز ، أقيم في مدينة الهافر مسقط رأسه ، ويمثله في هيئة رجل جليل يفيض وجهه بالسماحة والبشر ، ويمسك ورقة وقلمًا ، وعند قدميه طفل وطفلة عاريان يتصافحان تحت شجرة من أشجار المناطق الحارة ، وهذان الطفلان يرمزان إلى « بول وفرجيني » .

❊ ❊ ❊

** وليم شكسبير WILLIAM SHAKESPEARE

- من أعظم الأدباء والشعراء وكتّاب المسرح الإنجليز ، تم تعميده كطفل في 26 أبريل 1564 بكنيسة البلدة التي ولد فيها وهي « ستراتفورد أبون آفون » بإنجلترا .. ومات بنفس البلدة في 23 أبريل 1616 .
- كان أبوه قد نزح إلى تلك البلدة قادمًا من قرية سنترفيلد سعيًا وراء الرزق حيث مارس العمل في الزراعة وعاش حياة بسيطة وفقيرة.
- التحق وليم شكسبير بالمدرسة الابتدائية بالقرية حيث درس مبادئ اللغات اللاتينية واليونانية والفرنسية ، وهي الدراسة التي مكّنته فيما بعد من التعمق في قراءة كتب التاريخ والأدب الكلاسيكي.
- ولم يتمكن من مواصلة دراسته بسبب اضطراره إلى العمل لمساعدة والده . وعندما بلغ سن الثامنة عشرة تزوج من فتاة قروية من البلدة نفسها ، وهي «آن هاثاواي» التي أنجبت له ابنته سوزانا وتوأمين هما هَامْنِتْ وجوديث.
- ولأنه كان يهوى التمثيل بالإضافة إلى كتابة الشعر فقد انتقل إلى لندن سنة 1584 حيث التحق بأشهر الفرق المسرحية ، وكتب بعض المسرحيات ونشر أول أعماله الشعرية « فينوس وأدونيس » عام 1593 ، وحقق نجاحًا

كبيرًا واستطاع أن يسدد جميع ديونه ويتمتع بفائض يمكنه من الارتفاع بمستوى حياته.

- بعد النجاح الذي حققه في لندن عاد إلى بلدته الريفية « ستراتفورد أبون آفـون » وواصل تأليف القصائد الشعرية (حيث اعتبره نقاد ومؤرخو الأدب أنه الشاعر القومي للإنجليز) .. كما واصل كتابة المسرحيات الكوميدية والتاريخية والتراجيدية « المأساوية» التي تظهر فيها عبقريته وقدرته الأدبية الفائقة على تحليل النفس البشرية والتصرفات والمواقف الإنسانية ، وقدرته المتميزة على الموازنة بين المواقف الضاحكة والمواقف المأساوية المحزنة في حياة البشر .

- ترجع أولى المسرحيات التي كتبها إلى فترة التسعينيات من القرن السادس عشر ، بدءًا بالمسرحيات الكوميدية مثل « ترويض الشرسة » التي كتبها سنة 1593 / 1594 والمسرحيات التاريخية التي يتناول فيها حياة بعض الملوك الإنجـليز مثل مسـرحية « هنري السادس » التي كتبها سنة 1592 .. ومسرحية « ريتشارد الثالث » سنة 1592 / 1593 .. والمسرحيات التراجيدية مثل « روميو وجولييت » سنة 1594 / 1595 .. وتدل هذه المسرحيات التي كتبها شكسبير في بداية حياته الأدبية على تمكنه من القدرة على تطويع اللغة الإنجليزية للتعبير بها عن الأحداث والشخصيات في ضوء المنهج الذي ابتدعه في التعبير الدرامي .

- أما المسرحيات والأعمال الدرامية التي كتبها شكسبير في المرحلة الوسطى من حياته الأدبية فبعضها من الأعمال الكوميدية وبعضها الآخر من الأعمال التاريخية التي تناول فيها موقف أبطاله من الملوك الإنجليز والشخصيات

الكبرى من غير الإنجليز ومن الأحداث التاريخية التي عاصروها . وأهم هذه المسرحيات «تاجر البندقية» التي كتبها سنة 1596/ 1597 .. ومسرحية « ضجيج بلا مبرر » سنة 1598 / 1599 .. ومسرحية « هنري الرابع » سنة 1598 / 1599 .. ومسرحية « يوليوس قيصر » سنة 1599 / 1600 .

- ومع بداية القرن السابع عشر ، كتب شكسبير أعظم مسرحياته التراجيدية مثل مسرحية « هاملت » التي كتبها سنة 1600 / 1601 .. ومسرحية «عطيل» سنة 1604 / 1605 .. ومسرحية « الملك لير » سنة 1605 / 1606 .. ومسرحية « ماكبث » 1605 - 1606 .

- أما المسرحيات التي كتبها في المرحلة الأخيرة من حياته الأدبية فتتنوع ما بين الأعمال الرومانسية والكوميدية والمأساوية مثل مسرحية « حكاية شتاء » التي كتبها سنة 1610/ 1611 .. ومسرحية «العاصفة» سنة 1611/ 1612 .

- وما زالت أعمال شكسبير تحوز إعجاب الناس في معظم أنحاء العالم، وترجمت إلى عشرات من اللغات ، وما زالت تلقى هذا القبول والنجاح حتى الآن ، سواء بنشرها ككتب مقروءة أو بتقديمها على خشبة المسرح الدرامي والغنائي والراقص « الباليه » أو بإخراجها في أفلام سينمائية ذات شهرة عالمية .

* * *

صدر من هذه السلسلة

روائع الأدب العالمي في كبسولة (1) عرض وتبسيط مختار السويفي

روائع الأدب العالمي في كبسولة (2) عرض وتبسيط مختار السويفي

روائع الأدب العالمي في كبسولة (3) عرض وتبسيط مختار السويفي

روائع الأدب العالمي في كبسولة (4) عرض وتبسيط مختار السويفي

روائع الأدب العالمي في كبسولة (5) عرض وتبسيط مختار السويفي

روائع الأدب العالمي في كبسولة (6) عرض وتبسيط مختار السويفي

روائع الأدب العالمي في كبسولة (7) عرض وتبسيط مختار السويفي

روائع الأدب العالمي في كبسولة (8) عرض وتبسيط حسين عيد

روائع الأدب العالمي في كبسولة (9) عرض وتبسيط حمدي عباس